منيب البوريمي

الأسوارُ الكوريدا



قصص قصيرة

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

حسني يوسف الحموشي

الأسوار والكوريدا!

قصص قصيرة

منيب البوريمي

الأسوار والكوريدا!

قصص قصيرة

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبيـة الشعبية الاشتراكية

الطبعة الأولى

1393 و. ر - 1984 م

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ص.ب 959 مبرق 20235 "نيتليبيا"

إهــداء

ــ إلى الحب الذي لا ينتهي . . .

إلى أمــي ،

منيب
1984



فِي بَطْنِ الحُوتِ



ظلمت وباتت القريـة في بطن الحـوت، لم ندر كيف ابتلع الحـوت القريـة ، ولا كيف دخلت القريـة الى بطن الحوت ، لأن هذا الأخير ، كان قد ابتلعنا نحن ايضـاً ، كـان قـد ابتلعنـا جميعـا ، الـدور . . والأشجـار . . والعصافير ، وكل الأشياء سواء منها الحية أو الجامـدة . . الجميلة أو القبيحـة ، الـطريـة النـاعمـة ، أو اليـابسـة المتحطبة ، الزمن هو الآخـر بمفهومـه البشري الخـالد ذي السيـولـة المتـدفقـة والمتجـددة أبـدا ، لم ينـج من عمليـة الابتـلاع ، أصبـح مـادة جـامـدة صـماء . . استقـر بـين تضـاريس معدة هـائلة نهمة . . أمـا الناس فهم في بـطنه المتخـثر الـظلمـة أشبـه بـالسكـارى . . « ومـا هم بسكارى » . . يتمايلون ، يتدافعون ، أحـدهم يستند الى الآخر ، يتكىء عليه . . خشية الانهيار . . السقـوط . .

التداعي . . أو الأرتطام بجدار . . أو نتوء ما . . بينما كان البعض يحاول أن يتخلص من ملابسه الصوفيـة الثقيلة .
أما أنا ، فقد امتدت يدي اليمنى دون سابق تصميم ، أو نيـة الى فك ربـطة العنق التي شعرت أنها تكـاد تخنقني ، تشنقني . . تصادر أنفاسي المجهدة اللاهثة . . أدركت أني كـالآخـرين تمـامـا . . أتنفس بصعـوبـة . . لا وجـود للأكسجين في فراغ محيطنا . . استهلكه الحـوت عن آخره بل ان الحوت نفسه كان يعاني مما نحن فيه . . لقد دخـل هو الآخر منـطقة الاختنـاق التي أصبحت دوائرهـا تضيق حول أعناقنا في سرعة مذهلة . . واتضح للجميع بما ليس فيه مجال لأدنى شك . . أننا قاب قوسين أو أدنى من هاوية الهلاك .

ـ أحس البرودة تكتسح جسمي .
ـ الصهد يكاد يحطب أطرافي .
ـ مسامي تنضح عرقا باردا .
ـ قشعريرة راعدة تشمل كل ذرة في كياني .

أنا لم أقل شيئاً . . من عادتي الا أشرح ذاتي للآخرين ، أحتفظ بـاحاسيسي في أنـانية مفـرطة . . ومـا جدوى أن أتشكى أو أتظلم . ما جدوى أن أقول لهم :

ـ أحس الثلج ينبت في أطرافي .
الطحلب يتوالد . . يتكاثر في طريقي .
الكلاب تعوي خلفي . . تقضقض أنيابها في وجهي .
ما جدوى أن أقول أكثر من هذا . أو أقل من هذا .

يقولون اذا عمت هانت .

نحن اذن نمتح من بئر واحدة . . نتجرع العدم قطرة . . قطرة ، البرودة تنبت في خلايا اجسامنا بشكل كثيف وعنيد . . تنمو عشبا طفيليا . . تعرش . . تمتد . . تتسلق ـ كأشواك العليق ـ كل انحناءات أو استدارات أجسادنا . . تفصد العرق من جباهنا وأرجلنا ، رغم ندف الثلج الجليدية التي كانت تهفت بكثافة فوق رؤوسنا وأكتافنا .

لم يضف أحد كلمة الى ما سبق . . تكدسنا . . تكركبنا على أنفسنا . . صرنا كعلب السردين الرديئة . . المهملة في ركن ما من اركان دكان قذر . . تخبطنا في كل اتجاه ، اذ لم يكن هناك أيّ اتجاه ، جمدنا . . تخشبنا . . شلت أطرافنا . . أدمغتنا . . لم ندر كيف نتصرف . . جرذان قذرة داخل المصيدة . . الغريزة وحدها لا تفتح

بـابا . . لا تكسـر قضبانـا . . لا تهدم أسـوارا . . حاول بعضنا ـ رغم العجز البين والاحباط المتكرر بشكل يـدعو للبكاء ـ أن يحرق دماغه ، أن يثقب مخه . . أن يوجد منفذا مـا ، في ركن أو جزء مـا ، من تضاريس التنـين الهـائـل السمـك والامتداد . لكن دون مـا جـدوى . . الجـدران المحيطة بنا كانت مسبوكة من خرسانة رصاصية ثخينة . . اتضحت لنـا النهـايـة . . عـانق كـل منـا شعـوره بمـرارة واستسلام . . اننا مجردون من كل الاسلحة . . معنويـاتنا أصبحت في درجـة الصفـر . . الـدور . . الأشجـار . . العصافير . . كل الأشياء تتجرع لحظات الاحتضار . . لم نفكـر ـ ولا أنا فكـرت ـ في محاولـة مد الجسـور ، أو ربط الاتصال بالآخرين . . أقصد أولئك الذين لم يسقطوا . . أو بتعبـير آخـر ، اسعـدهم الحظ فنجـوا من كـارثـة الابتلاع . . لم نفعل ذلـك لسبب ما قـد يبدو تـافها عنـد البعض ، وقد يبدو ذا أهمية عند البعض الآخـر . . لكننا بغض النـظر عن كل شيء ، كنـا عـلى علم تـام بـطقس الأجواء الخارجية ، فالغلاف الأخطبـوطى المرعب الـذي يحيط بنا . . يضغطنـا جميعا . . الخـوف الجبان يستبـد بنا دون استثناء . . عملية التـذكر . . تـذكر التـاريخ قصـد

استحضار المواقف . . الحالات . . الخبرات السابقة التي تفـوح منها رائحـة البطولات النقيـة . . أصبحت عسيـرة للغاية ، ان لم تعد في حكم المستحيل . .

الجثـة وحدهـا تملأ شـاشة الـدمـاغ . . تحتـل مـدى الـرؤ يـة ــ « والنـاس سكـارى ومـا هم بسكـارى . . » يحسـون . . يدركـون أنهم ـ بكل مـاديتهم ومعنـويـاتهم ـ يعانون اللحظة الحرجة الفاصلة . . ورغم ذلك هم جامدو التفكـير . . مشلولو الارادة . . سيـطر عليهم الرعب من كل الأقطار .

ـ لا حول ولا قوة الا بالله . . يقول صوت ما ، من بين الاصوات اللاهثة المجهدة .

ـ إنا لله وانا اليه راجعون . . يرد عليه صوت آخر .

الجثة بدأت في الانتفاخ . . وربما في التفسخ أيضاً . النهـر غصّ . . أقلع عن التـدفق والجـريـان . . القحط واليباس يكتسحان كل الأشياء . . الدور . . الأشجار . . العصافير . . والناس . الحوت ايضاً كان يلهث من فـرط العـطش . . العـطش يكتسحنـا جميعـا . . تحـطبت حلوقنا . . لهواتنا . . رئاتنا . . أضلاعنـا صارت في مثـل

يبوسة أوراق الخريف الجافـة . اكتسح طمي الـرعب كل الأدمغة . . صار الجـوع ، الخوف ، العـدم في الأمعاء ، ذئبا ضاري الأظفار . . شره الأنياب ، حوصـرنا من كـل اتجاه ، من الداخل . . من الخارج . . من تحت . . ومن فوق . . أخيراً ، أقلعنا عن محاولات الاستنقاذ الجدية . . بدت لنا المسألة شبه منتهية . . وبمنطق سليم جدا . . مـا لجرح بَمِيِّتٍ ايلام . .

حدقت ـ ببلاهـة ـ في الجهات الأربـع ، كان جـوف الحوت ـ التنين ـ قد أخذ في حصارنا بشكل جد مرعب . . أصـابه انتفـاخ مفاجىء ، كـانت عملية اختمـار الغازات بادية للعين المجردة بصورة تبعث على القرف والغثيان . . الحـوت يتقلص . . يتشنـج ، يـرشـح دمـا قـذرا فـوق هاماتنا . . فجأة تبدت الأضلاع . . كالسلالم الخشبيـة ، تمـامـا ، تعـرت ـ أو كـادت ـ من اللحم الـذي أخـذ في التساقط من حولنا ، تاركا خلفه أضلاعا مدماة في هيئات وأشكال مختلفة ، أنهار فضية لامعة تنساب وسط الظلام ، مجـرات مشعة في سـماء بعيـدة الغـور . . لا متنـاهيـة . . صلبان متعامدة شائكة . . سلالم في كل اتجاه .

خمن أحدنا ـ وربما كلنا ـ ولأول مرة ، في تسلقها . .

أنــا أيـضاً ، راودتني الفكــرة ، وللمــرة الألف ـ رغـم استسلامي للاحبـاط واليأس ، فكـرنا في أن نتسلق هـذه الأضـلاع . . السلالم . . في أن نتـطلع نحو المنخـرين أو تجـويف العينين . . مـا زال هناك أمـل . . أمـل كبـير في الخروج . . النجاة . . الخلاص من الجثة . . المصيدة .

تقمّصني بـطل ما . . ربمـا كـان أسـطوريـا . . احـترّ الدم في عروقي رجمني أحدهـم بنظرة ساخرة . . حدقت في الأضلاع . . السلالم . . أجس نبض الطريق . . استطلع طقس الأدغــال . . واذا بي ارتكس في حمـأة اليــأس من جديد . . مما زاد في احباطي . . لن يتمكن أحد من تسلق الأضلاع . . الأضلاع لزجة متطحلبة . . تـرشح سـوائل قـذرة . . تهـالكت عـلى الأرضيـة النتنــة . . بحلقت في الأشباح الهلامية الضائعة . . انغرز الغثيـان في حلقي . . بصقت من شـدة القرف . . تبـدى أمـامي شبـح المــوت المجـاني الرهيب . . كـان الموت يـزحف نحـونـا من كـل اتجـاه . . ما أبشـع أن ننفق كما ينفق حمـار ضـال في قفـر بعيد . .

ازدادت العتمـة سمكا ، وانـطباقـا في محيطنـا ، وفي اعـماقنا ، الأفق ضائع في الضبـاب . . حمرة الشفق دمـاء

قانية تقطر حذو اللهاة . . لهاة الحوت . . الظلام كالغابة عاد ابتلع كل الأبعاد . . ساح على أرضية من الطحلب والدم والمخاط . فجأة ـ قال أحد المتشردين ، وكان وَسخ الثياب ، زري الهيأة ، علائم فقر الدم بادية على محياه :

ـ فكرة ليست رائعة ، ولكن لا بأس بها . . لا بد أن نعيد الكرة ـ وأشار بعينيه ناحيتي ـ لنتسلق . . أعطوني شيئا . . سلما . . حبلا . . ساعدا . . أي شيء ، قد يساعدني على التسلق ، أريد أن أطل من ثقب في العينين ، أو المنخرين ، أريد أن أحدث تجويفا ما ، في الدماغ المشروخ . . لا بد من عمل شيء . . أي شيء ، يكون فيه ـ أو عن طريقه ـ خلاصنا من التنين . . الأخطبوط . .

ـ . . . .

لم أنبس ببنت شفة . . كنت أعلم أنه على حق . . وأنه جرىء ، وبإمكانه أن ينفخ في الرماد . . فتتقد الجذوة . . ويكون الخروج من التابوت . . الجثة . . بيد أن زمام الأمور ـ وكذا الواقع ـ لم يكن بيدي . فاقتناعي بوجاهة تفكيره ، أو مسلكه لا يغير من مجرى الحوادث البتة . . كدت أقول له :

ـ نفس الفكرة خطرت ببالي . . لكني آثرت الصمت كـالآخرين تمـاما ، لاحظ المتشـرد جمودنـا . . صمتنا . . سلبيتنا . . كزّ على أسنانـه ، كور قبضـة يده اليمنى ، ثم قال :

ـ هكذا اذن . . لا أحد . . لا كلمة . .

ـ . . . .

ـ الصمت أكبر جريمة . . اعلموا هـذا جيدا . . انكم تشاركون في قتل انفسكم بمجانيـة مضحكة . . لكم أنتم سخفاء وتافهون . .

ـ . . . .

قال كلماته الأخيرة ، في غيظ سافر ، كمن يهـدد أو يتحـدى . . ثم مدّ يـدين ناحلتـين معروقتـين ، وأمسك بفجـوة ما بـين أحـد الأضـلاع ، تحسس السـلالم بحـذر بالغ . . تشبث . . استوثق ، نقل اليد اليمنى الى أعلى . . شبــر . . شبــران . . ذراع . . ذراعــان ثم . . زلقـت يداه . . تهاوت . . طحالب لزجة . . أغشية مخـاطية . . دماء قذرة . . لحوم متآكلة مهترئة . .

لا يمكن . . لا يمكن . ولكن مـع ذلك ، لا بـد من

اعادة الكرة . . قالها في يأس باد ـ وهو ينهض من سقطته ، ويتحسس احدى يديه . . كان قد انغرز في كفه شظية ضلع حادة .

علق شيخ هرم :

ـ لا فائدة . . لا فائدة من ارتكاب سخافة أخرى ، قد يندق فيها عظم رأسك هذه المرة ، [انها ارادة الله ، سنته في بعض خلقه من الأنبياء والأولياء والصالحين . . أوليس الله هو الذي أكرم صاحب الحوت. . .].

ـ « ولولا أن تداركه نعمة من ربه ، لنبذ بالعراء وهو مذموم[1]» ارشدوا يا أولاد . . استغفروا الله ـ ربي وربكم ـ لقد حمّ القضاء . . ولا مردّ لقضائه. . بطن الحوت لنا مقبرة . .

كحّ الشيخ ثم استأنف بعد صمت قصير :

ـ لا تحاولوا مرة اخرى ، كفانا عبثا وطيشا . . لنستكن . . لنلتقط الانفاس في هدوء . . لقد ابتلعنا الحوت ـ لحكمة ما ـ دون ان ندري وشاءت ارادة الله أن نمكث طويلا في بطنه . . دون أن يأتينا الخلاص نحن لا

---

1 ـ راجع سورة الفتح.

نعلم حقيقة ذنبنا ، انما شاءت قدرته أن يستبدل قوما غيرنا . . وشيكا ستنتن الجثة . . لقد انتهى أمرنا جميعا ، حاسبنا ربنا حسابا عسيرا ، ستمسى القرية نسيا منسيا ، تهدل شجرها . . وهاجرت عصافيرها . . غص نهرها ، وتوقف عن الجريان ، فتيبست الحقول والمزارع والضروع . . وتكاثرت الغربان . . الغربان نذير شؤم ، ستنهش لحومنا - لا محالة - بعد ما تنتهي من ابتلاع جثة الحوت . . تأكدوا من هذا يا أولاد . . ها نحن نموت . . نختنق ننتأ . . جوعا وعطشا . .

ثم في ابتهال : « اللهم اجتبنا . . اللهم تداركنا . . نحن عبادك وأنت الاهنا . . اللهم ارحمنا . . اللهم اغـ . . » .

وتحدرت دموع اليأس من عينيه المحمرتين الضيقتين .

احتج احدهم ، خبط الهواء بقبضة يده :

هذا استسلام . . هذا جبن . . هذا انتحار . . لا أريد أن أنفق كأي دابة . . لا أريد أن أموت بهذه الصورة الزرية . لا بد من فعل شيء . أي شيء ، للخروج من التابوت . . الجثة .

نتـراص . . نتـراكب ، لا بـد أن نـطل من ثقب في العينـين ، أو المنخرين ، لا بـد . . لا بـد . . أعتقـد أن الحوت لم يمت بعد . . ما زالت خياشمه تهتز . . يقينا أنه لن ينتهي بهـذه السهولـة . . وهـذا معنـاه أننـا لن ننتهي أيضاً . . [فاستمرار الحوت في الحياة استمرار لحيـاتنا . . وربما أدى ذلك ولو بعد لأي ـ الى خلاصنا . .].

ـ صـوت آخـر : « لا يـا شيخي الهـرم . . الحـوت سيموت وسينتهي حتما . . أما نحن فلن نموت بهذه الصورة المجانية ، أعتقد أنك بدأت تهذي . . أدركك الخرف . . فتخيلت أننا انتهينا نهاية مأساوية محزنة . . ثم من قال ان أسباب حياتنـا مرتبـطة بشكل أو بـآخر بحيـاة الحوت . . التابوت . .

واختلطت الأصـوات . . في خط بيـاني متصـاعـد ، بعضهم يحتج ويبرطم . . وبعضهم يحـوقل ويبسمـل . . وبعضهم يهـدد ويتوعـد . . والشيخ الـوقـور يستغفـر الله للجميع بصوت خاشع مطمئن . .

ـ رب . . لا تؤاخذهم ، انهم لا يعلمون . . اغفـر لي ولهم ، اللهم اجعل لنا من ضيقنا فرجا . . اللهم . .

أما المتشرد المتسخ الثياب ذو العينين الذابلتين واليدين الناحلتين المعروقتين ، فقد انتحى ناحية بعيدة عن القوم ، وما يخوضون فيه ، نزع مداسه المترب المثقـوب ، وجلس عليه . . واستغرق في التفكير . . ترى ما الذي يفكـر فيه هذا المتشرد التافه ؟ .

لم يدر بخلد أحد أن هذا الدرويش الزري الهيأة هـو شاعر عظيم وأنه رغم رثاثة ثوبه ، واتساخ أظافـره يكتب الشعر بخط جميل ، ويمارس الحلم كأي طفل . . حتى ولو أعدمت أدوات الكتابة . . وانتفت دواعي الحلم . .

ولما انتبهوا رأوه ينزع مسمارا من مداسه المثقوب . . ويتجه صوب السـلالم المطحلبـة اللزجة ، ويكتب عليهـا بعض أشعاره .

هزوا الرؤوس يمينا وشمالا ، تبسموا بسمات خريفية الـظلال . . غرقـوا في الصمت . . صمت مريب . . ولم يشعـروا الا والغـاشيـة تغشـاهم ، تسـاقـطوا لتـوهم ، وارتـطموا بـالأرض الصلبة كـزكـائب الفحم . . بعـدمـا انقذفوا في الهواء .

استفـاق الشيخ من غشيتـه ، لقـد تـرضـرض أحـد

أضلاعه ، وانخلعت احدى ثناياه . . وشعر بـطعم الملح بين شفتيه . . انه الدم . . الدم الساخن يتدفق بغزارة من فيه . .

ـ ماذا حدث . . أي رعب هذا الذي غشينا . . أيها الناس . . أيّ طامة هي ؟؟ .

ولما لم يجبه أحد . . تحامـل على نفســه ، عدل بعض الشيء من انحناءة ظهره . . حدق فيما حوله ، لا شيء مما كـان قبل الآن . . تحسس عكـازته . . لم يعـثر لهـا عـلى أثر . . تلمس العشب الندي ، علقت بأصابعه المرضوضة رائحـة الـتراب . . تنشق هـواء مشبعـاً بـروائـح البحـر البعيد . .

قـال الشيـخ الهـرم ذو السحنـة الشـاحبـة والصـوت الوقور :

ـ لسنا في بطن الحوت اذن .

ردّ أحدهم مقهقها :

ـ يا لك من شيخ معتوه . . ألم أقـل لك ان الحـوت سيموت حتما ، وأننا لن ننتهي بتلك الصورة المجانية .

ردّ الشيخ في تساؤ ل وحيرة :

ـ ولكن كيف . . كيف حدث هذا . . أنا لا أكاد أصدق . . لا أكاد اتذكر شيئا مما حدث . .

أجابه أحدهم في لهجة تنضح بالسخرية :

ـ المسألة في غاية البساطة . . كما أنها في غاية التعقيد لا يقوى ذهنك على الربط المنطقي بين أجزائها . . يكفي أن تعلم أننا الآن خارج الجثة . . التابوت . . أحياء نرزق، نتنفس هواءً نقياً مشبعاً بروائح البحر البعيد . .

قال الشيخ في استسلام طفولي :

ـ ولكن كيف . . كيف حدث هذا . ؟

ردّ الرجل الآخر ولهجته ما تزال ساخرة متهكمة :

ـ ربما تجشأ الحوت . . ربما عطس . . تقيأ . . من يدري . . يكفي أنه قذف بنا خارج الظلمة . . ربما من ثقب عينيه ، ربما من منخريه . . ربما من . .

قاطعه الشيخ الهرم وقد لمّ شتات نفسه أخيراً :

ـ يا لها من معجزة . . [سبحان ربي الأعلى ، لقد استجاب الدعاء ، وغفر لنا . .]. ثم شرع يتلو بعض

آي الذكر الحكيم من سورة القلم :

ـ ﴿ انا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها ، انا الى ربنا راغبون . . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . . ﴾ واستمر الشيخ يقرأ خاشعا متبتلا الى قوله تعالى : ﴿ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . . ﴾ غير أن الصوت المرتفع الذي انبعث فجأة من جهة ما . . قطع على الشيخ استرساله في التلاوة ، لكنه عند سماعه هذا الصوت أصاخ السمع . . كان هناك أكثر من واحد يتكلم ويحتج . . استطاع الشيخ ـ رغم ضعف سمعه أن يلتقط :

ـ لقد بحثنا عنه في كل الجهات . . فلم نعثر له على أثر . .

ـ ربما انقذف أبعد مما انقذفنا . .

ـ أنا لا أرى أيّ موجب للاهتمام به كفرد ضائع . .

ـ انه هو . . هو الذي . .

ـ عجبا تتنكرون للجميل بهذه السرعة . .

ـ لكم انتم تافهون . . وجبناء . .

وكانت الاصوات لا تبين في سمع الشيخ . . الا أنه

أدرك أنها غـاضبة مـرعدة . . هستيـرية . . متشنجـة لحد الـوعيـد . . قـال الشيـخ هــذه المـرة ، وقــد ادرك سـر الضوضاء :

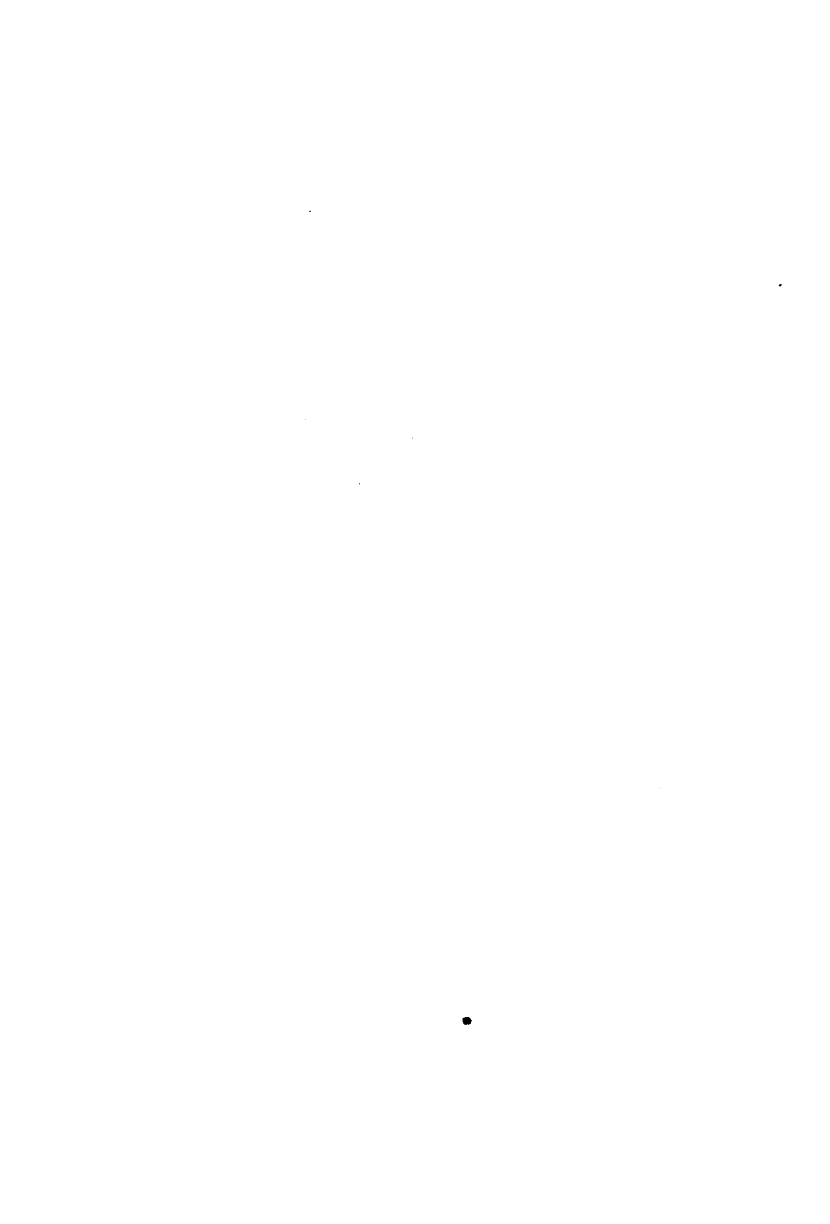
ـ أجل ،الشاعر المتشرد . .انني لا أراه . . أين هو . .

ـ لماذا لم تبحثوا عنه ؟ .

حـدقـوا للمـرة الألف ، في وجـوه بعضهم . . فيـما حـولهم ، بحثوا عن الـدرويش المتشـرد . . عن المـداس المثقـوب ، عن المسمار ، عن الأشعـار . . لكن عبثا . . وحـدي الذي كـان يعلم أنه مـا زال هنـاك . . هنـاك في العتمـة ، وأنه سيبقى في بـطن الحوت ـ التـابـوت ـ يحلم بالنجوم ، والسنابل ، والأزهار . ويكتب الأشعار بالمسمار على الأضلاع المـطحلبة اللزجـة . . الى أن تنتن الجثة . . تتفسـخ . . تتحلل . . تنعدم وتتـلاشى . . ويعود النهـر المتيبس للجريان والتدفق يسقي الحقول والبساتين . .

يونيه 1972 .

•



الأســــوَار

الظــل :

ارتفع السوط . . لمع في الفضاء . . تهاوى ، محدثـاً فرقعة مدوية ، لسع الظهر المقوس في عنف مسعور ، اهترأ القميص ، تفتت ، احــترّ الجلد ، انبعثت منـه رائحــة كريهة . . خليط من عرق وتراب ودم . . أنّ الرجل أنينـا مكتوما . . تأوه . . اغرورقت عيناه بالدموع ، حـاول أن يقـوم من انحنـاءة ظهـره . . أن يعتـدل في وقفتــه . . لم يستــطع . . لم يتمكن . . تصلب عمــوده الفقــري . . تشنجت أصابعه المحطبة . . تـراخت عضلات كفيـه . . سقط الحجر الضخم الذي كان يحمله على رجله اليمنى ، أنّ . . تأوه . . صرخ . . كان الصراخ حاداً مهتاجـاً . . مشـروخاً كغـرغرة المـذبوح . . مشنـوقـاً في سقف حلقـه النـاشف . . تكوم عـلى نفسه . . تـداخل في بعضـه . .

دارت به الأرض . . المرئيـات . . بدت الأشيـاء في عينيه مقلوبة الى أسفل . . تماما كما تبدو أشجار الغابة في بحيرة ماء راكد الصفحة ، اهتزّ بجمعه كجذع منخور ، اجتثت اعـراقه . . مـال للسقوط ، تكـركب ، تهاوى ، تـداركه الرفاق . . حاولوا الامساك به ، مساعدته ، الحيلولة دون ارتطامه بالأرض الصلبة ، رغم فرقعة الصوط . . زمجرت الظل . . وعيده وتهديده . لم يـأبه أي واحـد من العمال بالزعيق الهستيـري المتشنج الـذي كان يتصـاعد . . يمـلأ الأسماع . . الفضاء . . لم نحفل . . لم نكترث . .

اللون الأحمر :

يا للدم الأحمر القاني . . نزّ . . انبثق . . تـدفق . . سـال . . اختلط بالتـراب . . لـطّخ الحصـا . . خضب الأعشـاب . . من كان يـظنّ أنّ بهذا الـرجـل كـل هـذه الدماء . . عبر مخيلتي شبح الليدي « **ماكبث** » تلك السيدة الجهنمية . . تذكرت قولتها المشهورة في الملك القتيـل . . احتلت ذاكرتي أصباغ قانية في لون الغروب الخضيب . . شعرت بالغيظ ، اجتاحتني عاصفـة من الحقد مـدمرة . . ماحقة . . لم يعد يرتسم في شبكية العين غير لون واحد ، فاقع الحمرة ، يرعبني ، يهددني بالانفجار ، يحيلني وحشا

همجي الطباع . . تاقت نفسي لحظتها ـ لو كانت لي مخالب وأنياب ـ الى غرزها في لحم هذا الخنزير القذر المسخر الذي كـان رغم كل مـا حـدث ، مـا يـزال متحجـرا في وقفتـه المستهتـرة . . الفاجـرة ، يلوح بـالسـوط . . يـرفعـه . . يفرقعه . . يـطرطقه . . يصفـع به الهـواء . . يتوعـد . . يهـدد ، يـرغي . . يـزبـد . . يصـدر الأوامـر ، يهـدد بـالفصل ، يتـدخـل في تقـريـر المصـائـر . . الأرزاق . . يتحكم في منحها . . توزيعهـا . . كل ذلـك بأمـر السيد أوليس هو ظل السيد ؟. ووكيل أعماله ؟. وجـالـب مسراته ؟. وأمين سره وخصوصياته ، والشاهد الوحيد على مباذله وأوساخه ؟. بلى !. انه هو بقضه وقضيضه . . بلحمـه وشحمـه . . ومَنْ مِن العمـال الأدنيـاء ، المعتـوهين . . القـذرين ، يجـرؤ عـلى رفـع يـده . . صوته . . من منهم لا يـرهب ظل السيـد . . صوتـه . . خطواته . . فرقعة سوطه ؟. من يحتج . . يعترض ، يجأر بالشكوى . .

فكرت في أكثر من هـذا ، تذكـرت أبشع ممـا حدث اليوم ، ودون أي ارتباك أو خوف ، رفعت بصري اليه في تحد سافر . . لم يتعوده من أحد . . فطن الوغد الى نيتي ،

تركته يشتف أكثر . . يرتوي من الحقد الذي يتوهج في عيني . . وماذا يمكن أن يقرأ فيهما غير المقت والازدراء . . غرزت عيني الحادتين في وجهه المشحم ، المطاطي التدوير ، حدقت فيه مليا . . لا بل أكثر من اللازم . . أحسست بعيني النسريتين تخترقان بؤبؤ عينيه . . تحمل الوغد الاهانة . . الاحتقار . . التحدي في جلد الخنزير . . كنت ما أزال مقرفصا ، وجسم الرجل المرضوض الأعضاء ممدد أمامي على الأرض الخشنة المتربة . . يعتصره ، يفتته ألم ماحق . . وبدا لي لحظتئذ ممثل السيد ، ووكيل أعماله ، وظله في ارضه ، كما لو كان يغور في باطن الأرض شبرا فشبرا ، كلما ركزت بؤبؤ عيني في دوائر عينيه . . ولأول مرة أحسست أنه يعاني شعورا ما . . ويظهر قردا قميئا رغم العملقة الفارغة المفتعلة . . والشجاعة الكاذبة المموهة . . كان يتعرى . . يتضاءل . . يتقزم . . يتحلزم . . ويتلاشى . . وخيل الي وقد أعياني الغضب الهادر في أعماقي . . والحقد المتضرم في دمائي أن ذراعه اليمنى رغم تماسكها ـ ترتعش . . ترتعد . . تخور . . ترتخي . . تتهاوى في ذلة وانكسار ، والسوط الذي طالما ألهب به ظهور أبناء القرية النازفة المستكينة .

وفرقع في الهواء ، جوراً ووعيداً ، خيل الي أنه هو الآخر ، يرتخي . . يلتوي . . يتهاوى يسقط على الأرض . . يتعفر بـالتراب . . بـالوحـل . . بالبـول . . بـروث البهـائم ، يتلاشى . . يختفي . . تدوسه الأقدام الغاضبة . . الهادرة المتدفقة الكـاسحة بمـداساتهـا الضخمة . . وقـد انـدفعت كالسيل العرم .

السيد يدخن :

قال السيد ـ وهو معتلٍ ظهـر جواده المـطهم ـ ينفث سحـائب من دخان كثيفـة زرقاء . . من غليـونه المـذهب المعقوف في عنجهية بادية :

ــ كيف حدث هذا ؟ .

ــ . . . .

ــ وما معنى استنزاف الوقت في أمور تافهة كهذه . .

أجاب ظل السيد وعلى وجهه الثعلبي ابتسامة تمساح ماكرة :

ــ العفـو . . عفـوك ايهـا السيـد . . أدام الله عـزك ونعمتك . . المسألة في غاية التفاهـة . . انهم يجعلون من الحبة قبة ، كـما كانت تقـول جدتي من أبي رحمهـا الله . .

والحقيقة غير هذا تماما . . فسوء التصرف ، وبلادة الذهن ، وبطء الحركة ، وعدم التحكم في توازن الجسم قصد استغلال جميع طاقاته . . بالأضافة الى الغش والخديعة والتماطل في تأدية الواجب . . كل هذه الأمور . . الأسباب . . وكثير غيرها . . أدّى الى اسقاط الحجر الضخم ـ عفوا ـ الحصية الصغيرة على رجل هذا البغل الغشاش البليد . .

ثم في استخفاف وعدم اكتراث :

ـ لقد نال جزاءه . . يستحق أكثر . . انه جرح طفيف في رجله اليمنى لا تأبه يا سيدي بمثل هذه الأمور التافهة ، سنعمل ـ عاجلاً ـ على تضميد جرحه . .

كدت أنفجر . . أنقض عليه ، أصفعه . . أركله . . أبصق عليه . . في وجهه ، كنت أشبه بقنبلة موقوتة ، لكنها قنبلة غير قابلة للأنفجار . . قنبلة معطلة . . ألا تبّاً لي . . لست أدري كيف ضاع مني المفتاح . . ولا كيف استطعت كبت الصراع الانفعالي الذي كان ـ لحظتئذ ـ يصهل في دمائي . . تماسكت . . تريثت . . خيل الي أن أنفاس الرجال قد خمدت ، ماتت ، تلاشت لدرجة أنه لو هوم حفيف أجنحة لذبابة ضالة أغارت على صمتنا ،

لأحدثت دويا هائلاً . . انتظرت أن يحتج أحـدهم . . أن يـرفـع يـده . . أصبعـه . . صـوتـه . . أن يمسـخ الـظل الكريه ، أن يسلط عليـه أشعة الشمس . . حـرارتها . . كي يتعرى . . ينفضح . . أن يعلن الحقيقـة الضائعـة في نصاعة الثلج ، وطهارته ، في وهج الظهيرة وارتماضهـا ، لكنهم سكتـوا . . كلهم أغـرقـوا في الصمت . . ذابـوا . . انماثوا في الظل البارد الكريه . . لكأنما ألجموا بالحديد . . أنا أيضاً كنت ملجما . . لست أدري كيف؟ . ولا لماذا ؟ . ربما جبنا ، ربما خوفا ، ربما طمعا ، ربما . . كلنا تواطأ مع الظل من حيث لا يدري . نصره . . شدّ من عضده . . أسنده الى صدره ، وبكلتا يديه حتى لا يتفتت أو ينهار . . الجمنا ، لكأنما الطير الأبابيل فوق رؤ وسنا .

ـ ألا تباً لنا . . لتتنزل السياط على ظهورنا . . لتلهب دماءنا . . فنحن حيوانات تافهة ومستكينـة . . تستمرىء عذابها على مرّ السنين . . ردّ السيد من فوق جواده المطهم الأصيل . . وكأن الحادث أمر تـافه لا يعنيـه من قريب أو بعيد :

ـ ما زالت الاسوار في مرحلة التخطيط . . يبـدو أن الأعمال تسير ببطء شـديد . . وهـذا ان استمرّ . . حتـما

سيثير غضبي ، ويفجر غيظي ، هيا عجلوا . . (موجها الحديث الى تابعه) ، راقب الأعمال بعناية ودقة . . لا تدع الوقت يمر دون استثمار . . افصل كل من سولت له نفسه الإخلال بالنظام . . وبثّ الشغب . .

سارع الظل المقيت يجيب على الفور بعد اعتذار سخيف جدا ، يقطر نفاقا وجبنا . .

ـ العفو . . سيدي . . كلمتكم هي العليا . . انني أنفذ ما تأمرون ، وأسهر على سير الأعمال بكل عناية ودقة . . أعدكم بأن كل شيء سيسير منذ الآن على أحسن ما يرام . . وكما تشتهون . . صحيح أنهم ضيعوا وقتا طويلا أمام هذا الكلب القذر ـ ولكن هذا لن يتكرر أبداً ، (ملتفتا الى العمال) هيا . . هيا . . باشروا أعمالكم يا أحفاد القردة . . (ملتفتا اليّ . .) وأنت يا ابن الـ . . . سأسوي حسابك في أقرب وقت . .

كانت الكلمات البذئية ، تخرج من فيه العطن . . سريعة متعثرة . . متتابعة . . وبعضها كان يموت فوق تضاريس لسانه الأفعواني وربما اختنق في قعر حنجرته . . ولكن لماذا . . لماذا لم يشكني الى سيده . . ؟

لماذا لم يمطر علي غضبه وقد كانت فرصة ذهبية ليغرز

أنيابه . . هل هو يخاف مني . . ؟!

هل هو يرغب في ضمي الى صفه وبالتالي أن أتواطأ معه . . عندئذ رفعت رأسي ، وأنا في كامل وعي هذه المرة ، لم يستفزني قراره . . كنت أنتظره . . غرزت عيني من جديد في تجويف عينيه الضيقتين الخبيثتين . . تحاماني الجبان . . راوغ . . ارخى أجفانه المنتوفة الأهداب . . نظر الى جهة ما . . جهة غير محددة تماما . . فخيل إلي أنني ألمح شبح ابتسامة شامتة ترتسم على سحنته البغيضة . . بصقت من أعماق حلقي ، على الظل الكريه . . على نفسه . . على رفاقي . . وعلى كل الجبناء أينما كانوا . . وحيثما تواجدوا . . بصقت كل حقدي . . مرة واحدة . . ونظرت الى الوجوه في احتقار . . احتلت مخيلتي من جديد أصباغ قانية الحمرة . . رائحة احتراق تصاعدت من جوفي . . بصقت على الأرض للمرة الألف . . حولت بصري الى جهة ما . . جهة محددة تماماً . . استقرت عيناي على الجثة الضخمة الأنيقة . . على السيد المحظوظ الذي ولد وملعقة من ذهب بين شفتيه . . ترى ما الذي يميزه عن باقي خلق الله . . إنه رجل أكرش ، بشكل لافتٍ للنظر . . متداخل التركيب . . وثيقه . . مكتنز الشدقين . .

بالوني الحنكين.. مزدوج الذقن.. أصلع الرأس الا من زغب أصفر باهت يتناثر في فوضى بادية حول فوديه. أضف الى اللوحة تلال الشحم الوافرة التي كادت تغطي عينيه الضيقتين المنتوفتين.. ومن بين شفتيه الداكنتين المنفرجتين ظهرت اسنان متآكلة صفراء أتى النيكوتين على جذورها فبدت كغابة محترقة كما لو أنها آيلة للسقوط..

هذا هو السيد باختصار.. قد يكون الوصف مخلاً، قصرت بعض الشيء في الاحاطة بكل تفاصيل هيئته.. لكن لا بأس.. أردت أن أقول فقط: انه رجل عادي جدا، لا ميزة تميزه عنا نحن أبناء هذه القرية التعسة، ترى ما الذي منعه من النزول عن دابته.. والتحدث الينا، وانصاف المظلومين من العمال المستخدمين في ارضه.. ألأنه غني ونحن فقراء ورثنا الخصاصة والاملاق عن آبائنا.. وورث عن أبيه البيت الكبير والهكتارات الشاسعة، والخدم، والحشم، وهذا الجواد المطهم.. ثم لماذا هو يبني هذه الأسوار العالية حول منزله الكبير.. بل قصره المنيف.. يستعجل بناءها.. ويصر على أن تكون أسواراً عالية، صلدة، وسميكة بما فيه الكفاية.. ألكي لا تفتتها المعاول والمناجل والهروات اذا ما غضبت

ذات يوم . . أم هو يحرص على أن تكون كذلك ، كي لا تبليها السنون . . وحتى تتمكن وباستمرار من عزل الدار التليدة ـ النخبة المحظوظة ـ عن هؤلاء الكادحين ، الأجراء ، التعساء ؟!

وحدي كنت أفكر في هذا ، تمنيت لو فعل الآخرون مثلي . كنت وحدي أحسست بالغربة ، بالضياع ، بالانسحاق . تآكلت من الداخل ، احترقت . . تفرست في حدود الرجل وأبعاده . . تسلقته ، استقرت عيناي على قفاه . . في حين كان هو قد لوى عنان جواده . . وعاد على عقبيه ، دون أن ينظر في أمر الرجل الجريح بعين الجد ، أو يأمر له بعلاج ولو من قبيل الشفقة والاحسان .

الأســوار :

في اليوم التالي فُصلت من عملي . . لم تكن مفاجأة بالنسبة لي ، لو مكثت هناك ، لكنت وقعت في ورطة . . ضربت ، أو قتلت ، أو دخلت السجن ، أو . . . وتكون النهاية ، ولكن لا . . ينبغي أن أتابع سرد الحكاية كما وقعت . . لأنها كانت لا تريد أن تنتهي بشكل ما . . وعند هذا الحد . . ولأن الحجارة الثقيلة الصماء ظلت تنقل من

الجبـل ـ اقصد المقلع ـ عـلى ظهور البغـال والحمـير . . لم يفكر أحد في استعمـال الشاحنـات مطلقـا ـ لا السيد ولا ظله ـ تـوفيرا للمـال . . والبنـزين البغـال والحمـير تكفي وزيادة . . بل في كثير من الأحيان ، كانت مواد البناء تنقل على أكتاف الرجال وليس عـلى ظهور البغـال التي كانت ـ بأمر ظل السيد ـ تأخذ فترة استراحـة من حين لآخـر . . رأفة بالحيوانات البكماء . . وكان وكيل أملاك السيد وظله في ارضه ما يزال على حاله . . وفي قمة انبهاره وعنجهيته ، يتدحرج كالبرميل، يغدو ويروح، يبرم ويحـل . . يوظف ويفصـل ، يـرغي ويـزبـد ، يهـدد ويتـوعـد ، يغضب ويرضى ، ينعم ويحرم هـذا من الحلاوة ، وذاك بـالفصل والآخر بالسـوط . . السوط دائـما في يده . . يلوح بـه في الهواء . . يفرقعه . . يُطقطقه ، يصدر الأوامر . . يقـرر المصـائـر . . يفضـح ،يَـمْنَحُ . . الأجــور . . الأرزاق ، يدخن سجائر بالفلتر . . المصفاة ـ يقهقه ملء شدقيه . . ملء رئتيه . . يترنم بمقاطـع شعر غـزلية مـاجنة . . يلوك مواويل عشق غجرية ،يجلس في الظل الوريف . . يراكب ساقا على ساق . . يرتشف فناجين القهوة الساخنة في تؤدة وتلذذ . . كل هذا يتمتع به ظـل السيد ، والسيـد يعرف

ذلك جيدا . . يقره عليه ، يزكيه ، وكلما سمع عن مغامرة من مغامرات تابعه الأمين ، ابتسم ، قهقه ، ثم استلقى على ظهره من فرط الضحك . . لم يحدث قط . . لم نسمع أن السيد نقض لظله أمرا ، أو رفض له نزوة ، أو استهجن منه تصرفا ما . .

وذات صباح ، استيقظ سكان القرية . . كانت القرية شاحبة ، معتلة ، وكان الضباب يغطي حقولها وأكواخها القريبة والبعيدة ، ورغم ذلك ، شاهد الناس القلعة ، كانت القلعة صامتة ضخمة ارتفعت أسوارها ، شمخت ، تسلقت عنان السماء ، حجبت عن أعينهم الدار العتيدة ، التليدة ، التي ورثها الابن عن الأب عن الجد . . عن . . عن . . الى آخر شجرة الأنساب الشريفة الى أن آلت التركة أخيراً للسيد الشهم الكريم . . فكان أن سوّرها وأنزلها في حرز حريز . .

فركوا أعينهم الساهمة ، الثقيلة الأجفان ، دعكوها ، لم يصدقوا فعلت أنا مثلهم . . رغم أني ساهمت في بناء أسس أسوارها ذات يوم . كرهت نفسي ، وكرهت القرية ، وكرهت أسوار القلعة التي بدت لنا على كتف الهضبة الغربية ، وربما كانت الهضبة الشرقية . لست

أدري على وجه الدقة . . كما لو كانت عملاقا ماردا من الجن يهزأ ببيوت الطين التبني ، والقرميد الأحمر . . وبراريك القزدير وأكواخ القصب الجاف . .

تمكن منهم العجب . . أخذتهم صاعقة الدهشة ، تعجبوا في سذاجة الأطفال ، من روعة البناء ، وهتفوا في أعماقهم :

ــ هذه آيات الخلود . . هكذا والا فلا . .

وما عتمت دهشتهم أن تفاقمت . . عندما لاحظوا أن الشمس قد تباطأت في الصعود هذا الصباح ، وأن الأشعة الباهتة المتسللة من خلال الضباب قد تلاشت خلف الأسوار الجهمة . أحسست بشيء ما . . شعور ما . . ثقيل يجثم على صدري ، ترى هل فكروا لحظة واحدة وخاطفة في السوط الذي ظل يلهب ظهورهم . . أكتافهم . . دماءهم سنة بعد سنة . . وهل مرت في أذهانهم قوافل البؤساء، من الرجال وأصناف الرجال وهي تنقل الحجارة الصماء من المقلع . . أوليست سواعدهم ، عضلاتهم . . قواهم . . هي التي استنزفت في كل هذا . . أوليس العمل الدائب الصموت من أجل الحصول على لقمة العيش المغموسة في العرق والدم

والتراب ، هو الذي أقام هذه الأسوار العالية الجهمـة . . لتحجب عن أعينهم وقلوبهم أشعـة الشمس الـدافئـة . . وليتربع السيد داخلها ، في الصباح يتجول بـين هكتراتـه الشاسعة الخضراء ، على ظهر جواده المطهم الأصيل ، وفي المساء يجلس في احدى شرفات قصره المنيف ، يراكب ساقا عـلى سـاق ، يـزدرد شـرائـح اللحم المحمـرة اللذيـذة ، يـرتشف أقداح الـوسكي المعتقة ، يحشـو غليونـه بـالتبـغ الهلدني الممتاز ، ينفث سحائب الدخان الـزرقاء في تـراخ وكسل ، يتشهى مضاجعة قروية ما . . غضـة الاهاب ، عابقة الضفائر بروائح الحقول البرية ، يتنهد في ارتيـاح ، يمتلىء بالـزهو والخيـلاء ، يراقب الغـروب ، ويتمـلى من جمالاته الفاتنة ، وجموع الخماسين والحمالـين والأجراء في سعي ميكانيكي متصل بين خزائن القصر وحقول السيد؟!

هـز أحدهم رأسـه . . تنهـد . . سـأل الـواقف عن يمينه :

ــ أتذكر . .

ردّ الآخر في حزن كظيم :

ــ الله يرحمه . . لقـد استراح من آلامـه المبرحـة . .

لكم تمرّ الأيام بسرعة . . وبقسوة !.

كدت أصرخ في وجوههم المصفرة الباردة :

ـ ومع ذلك لم تتغيروا . . !!

لكنني احترمت ذكرى الرجل الطيب . . الرجل الذي حاول أن يقوم من انحناءة ظهره . . ولما يفعل . . فقد ظل ممددا تحت سقف بيته الطيني الحقير . . الف ليلة وليلة . . لكم كانت لياليه طويلة ، ثقيلة ، وخانقة ، جثمت على صدره الضعيف المرضوض ، فجرعته الآلام قطرة . . قطرة ، كانت الآلام تنتشر في ساقه المرضوضة . . في جسمه الهزيل . . في روحه المعذبة كما ينتشر الزغب الكثيف في جسم حيوان وليد . . اكتسحه الألم عضوا عضوا ، فتت لحمه . . حزّ عظمه . . صادر أنفاسه! . .

ـ مسكين مسكين أنت يا عم !! آخر مرة زرناك فيها ابتسمت في وجوهنا ، سألت عنا واحداً ، واحداً . . قلت لك لقد فصلت من العمل في اليوم التالي للحادثة المشؤومة . . لحظتها ارتعش جسمك الناحل ، الممدد أمامي على حشية القش المتربة ، اختلج كل عضو في جسدك . . لكم ندمت على نبش أحزانك . . نظرت في

عيني ، كانت عيناي ممتلئتين بالـدموع . . دمـوع حقيقية متفجـرة من القلب . . احتلت ذاكرتي صـور دمـويـة . . وأطبقت جفنيـك . . ظننت أنك في حـاجة الى النـوم كما أنـك في حـاجـة الى الانتقـام . . ثم ، . . ثم غبت عن الوجود . . وفي الغد وارايناك التراب . !

ـ مسكين انت يا عم !!

ـ مسكين ، كلنا تذكرناك اللحظة . . .

ـ تـرى هل فكـر أحد من هؤلاء الأجـراء الأشقياء التعساء في الدم البريء المسفوح الـذي روّى أعراق هـذه الأسوار السميكة الملونة الضاربة في متاهة الفضاء ؟ . .

ـ هل فكر أحد منهم في هدمها ؟ .

ـ هل فكرتم ؟ . هل ؟؟!

ولما لم يجبني أحد ، أدركت أنهم كانوا قد تفرقـوا . . لست أدري كيف . . ومتى . . وأني كنت وحدي ! .

ديسمبر 1972 .



نطفة



ـ انـطلقت . . اندفعت . . انقـذفت . . كل شيء تمّ في سـرعة صـاروخية عجيبـة ، عبرت كـل الممرات ، تسلقت كل النتوءات ، نـزلت ، تخطيت ، جـاوزت كل التعـاريـج . . بعجت . . هتكت . . اختـرقت جميـع الأغشية . كل شيءٍ سـاعدني عـلى الانزلاق السـريع . . وربمـا الممتع ايضـاً . . الانقبـاضـات . . التشنجـات . . الرعشات . . الرطوبة الزلالية . . حموضيـة السوائـل . . عتمة المسارب . . الأجواء . . وأشياء كثيرة ، كثيرة جـداً كنت أصـادفها . . أصـطدم بها . . أتخـطاهـا ، واذا أنـا أرتعش . . أصـطك . . أقفقف من رياح الخـريف . . . من زمهـرير الشتـاء . . من رطوبـة الربيـع . . من صهد الصيف . . من وهـج الظهيـرة . . وبـالتـالي من العتمـة السميكـة التي كـانت تنتـظرني . . تنـاغي قـدومي . .

تتلظى . . تحترق . . تمدّ الأذرع . . تمطّط الزّوائد . . تفغفر الأفواه . . الأشداق . . لتحضنني . . لتبلعني هناك في القاع . . قاع الرحم . لم أر النور مطلقا ، لكأني تخلقت للظلمة ، خرجت من هناك . . ودخلت هنا . . نفس المسارب ، الروائح ، الأجواء . . كان أملي لدى مغادرة موطني الأول أن أغادر بحار الشوق المزبدة المضاءة بثريات النجوم المليئة بالدر والمرجان وكل كنوز العهود الأسطورية التليدة ، لكن هذا الأمل . . الظن . . خاب . . [تجري الرياح بما لا تشتهي السفن] . . حكمة قديمة . . اناء خزفي فارغ . . بل وصفة سحرية مهدئة قالها بحار فاشل ، تذكرتها اللحظة وأنا بين الشعاعين . . الضدين . . الحياة او الموت . . حاولت أن أتجلد . . أن أتعزى ، لكن عبثا ، اذ سرعان ما آلمني الضوء . . الاشعاع ، انهال علي في قوة النيزك الساقط من السماء . حاولت أن أختبىء . . أن أتحدى . . تحاميت الأشعة البنفسجية الكاسحة . . أطبقت أجفاني . . أحسست بالخطر يتهددني . أتلفت بعض أطرافي اشعاعات النجوم ، أسرعت في العبور نحو القاع ـ قاع الرّحم ـ حيث العتمة ثخينة ، والظلام كثيف ، كان الفراغ هائلًا ، متنائي الأرجاء ، وكانت العتمة سميكة متخثرة . . مديدة

الأنحـاء . . لم يـدر بخلدي قطّ ، أن القـاع بكـل هـذا الاتساع ، وهذا الغموض . أدغال مجهولة عذراء ، اغرب من أدغال الغابات الاستوائية ، ورغم ذلك لم اتوجّس ، لم أخف ، لم أرتعـب . . نسـيت أو تـنـاسيـت الـوصفـة الانهزاميـة . . انطلقت رغم كـل المـثـبطات ، أعـدو . . أكتشف . . ألتـذ . . أتـألم . . تـزحلقت هنا وهنـاك ، تـواجـدت في شتى الاسـتـدارات . . والانحنـاءات . . زرعت زوائـدي ـ رغم ضآلتهـا ـ في شتّى الاتجاهـات . . تحّسست كل المنحنيات والتعاريج . . كل التضاريس . . الأجواء . . الأشياء . . صـدمتني نتوءات كثيـرة ، وديان هضاب ، جبال لحمية لزجة . . شجت رأسي . . جدعت أنفي . . فقأت عيني . . قلصت من زوائدي : أحسست برضوض وكدمات بالغة الخطورة في سائر تكويني الهلامي الأعضاء ، كانت الجدران اللحمية اللزجة مطحلبة ، تكاد تكون نتنة ، تكسوها أغشيـة مخاطيـة الأليـاف . . سـديمية الألـوان ، وكـان القـاع مـظلما وعميقـا ، كـان مـرعب الأنحـاء . تحسّست الجـدران من جـديـد ، شعـرت بـالاختناق ، اتضحت أمـامي نهايـة المسيـرة ، أنـزرع في حلقي ملح العـدم ، انتفضت ، رفضت الاستسـلام . .

حـاولت الانفلات . . الهـروب . . بحثت عن الضـوء ، عن المنفـذّ ، عن الـطريق . . عن الخـلاص . . لكن عبثـاً . . تخبـطت ، لهثت من الاعيـاء . . تهـاويت من التعب . . من الارهاق . ضقت ذرعا بسجني وسجاني ، ومصيري . تأكد لي أن لا سبيل الى العبور ، بل لا بديل على الاطلاق . واذن ، لا بـدّ مما ليس منـه بدّ ، واذا انـا ارغب في الانتحـار ، وبأي طـريقة . قلت في نفسي : - أذبح وريدي . . أسقط من حالق . . أتدلّى من سقف . . أغـوص في لجّـة . . أختنق بـالغـاز . . أبتلع حفنـة من الأقراص . . ، فكرت طويلا ، فكرت كثيرا ، فكـرت في أن أجرب كل شيء . . حـاولت أن اتذكـر كل أسـاليب الانتحار المجانّي التي قرأها النـاس على صفحـات الكتب والمجلات والجرائد ، لكني بعد اجهاد وارهاق شديدين ، لم تسعفني الـذاكـرة ، وذاكـرتي كـانت مـا تـزال في بـدء التكوين ، كنت ما أزال خارج دائرة الادراك . كنت مجردا من كل شيء ، فقط كنت أملك صوتي ، كان في امكاني - بعد تمرينات يسيرة - أن أصيح ، أن اصرخ ، أن أحدث أيّ صوت ، احتجاجا ، استغاثة ، تأوهاً ، صراخاً ، واذا بي ، دون سابق تخطيط ، أجـرب ، أرتاد كـل الطبقـات

الصـوتيـة . تـأوهت صـرخت ، احتججت ، هـددت ، أخيـراً ، استغثت ، نـاديت الضـوء . . الانعتـاق . . الاشراق ، بل ناديت الموت ، العدم ، اللاشيء ، لدرجة أن صـوتي بـحّ . . تهـدج وتـلاشى . تمـزقت حبـال حنجرتي . . تحطب حلقي . . سقط لساني دون حراك . . ها قد وقع ما كنت أخشاه . . تأكدت من نهايتي ، انتابني يأس فظيع ، لعنت لحظات تخلقي وانقذافي ، هم يلتذون وأنـا أدفع ثمن اللذة . مـا أتعس كينـونتي ومصيـري . . التفت الى الوراء ، في محاولة أخيرة ويـائسة . . . ولكـأنما أبصرني اللعين ، اذ سرعان ما انغلق منفذ الـرحم ، ربما تلذذا ، ربمـا ألمـا ، تشبثت ، تشنجت ، صـرخت من الأعماق . . وربما لآخر مرّة :

ـ الضوء . . الضوء . . الضوء !!!.

ـ لا بـد لي من دفقة أشعـاع ، من جرعـة ضوء . . تتلف بعض احساسي ، بل كـل وجودي . . تمحقني . . تحيلني ناراً تدمرني ، تنثرني رمادا ، وتذروني . لا بـدّ . . لا بدّ . . لا بدّ من خـلاص كيفما كـان ، أكره أن أكـون جنينا مشوه الخلقة ، يحمل الصخور الى اعلى والسوط تأكل من جلدتـه ، وتلعق من دمـه . يحـاصـرني القـانـون ،

يستجـوبني الشـرطي ، يسخـر مني القـاضي ، يكبلني السجان ، أمّا المجرم الذي طعنني ذات مساء . . بخنجره الحـاد المسنون وغـادر الغرفـة الدافئـة بعيدا عن الـرقبـاء والمخبرين وكلاب الصيد البارزة الأثداء . . بل هو في كل مساء ، يقترف جريمة جـديدة نكـراء دون أدنى أسف وفي كثير من الزهو والخيلاء ، يمسح خنجره الـلامع المشـع في تؤدة وتلذّذ . . ويخرج من الباب العريض المواجـه لبوابـة الشـرطة الـرئيسية ، ورغم أنّ آثـار الدّمـاء طريـة وعالقـة بشراشف السرير ، الذي وقعت عليه الجريمة ، فان التقرير الرسمي - تقريـر الادانة - لا يشـير الى أي شيء من هذا القبيل ابدا ، فقط ، يركز على الضحية . . يضعني داخل دائرة حمراء . . . أصرخ للمرة الألف :

— أكره أن أكون . . أكره أن أكون . . لا أريد حياة مليئة بالآلام ، ناضحة بـالتعاسـة والأحزان ، لا أريـدها أبـدا ، لا بدّ من دوائـر مشعة ، لا بـدّ من أقـراص منـع الحمل ، ما دامت الوسائل الأخرى قد عزّ الوصول اليها . عليّ بالأقـراص ، اليّ بها . . . لكن عبثـا ، بحّ صـوتي ، تمزقت حبال حنجرتي ، سقط لساني . . تهاوى جثة باردة هامدة . انزرع ملح العدم في حلقي ، أصابني الصداع ، تفاقم الطنين من حولي ، بصقت بمرارة ، حدّقت فيها يحيط

بي ، أبصرت شبيهات مثلي تسرع نحو القاع . . كان القاع محتلاً . . حاولت أن أفتح فمي ، أردت أن أقول :

ـ هنا أزمة سكني . . لا بيع . . لا ايجار . . .

لكني فشلت . . تعبت . . لهثت . . تهافتّ من التعب ، تهاويت من الارهاق ، لحظة . . ليلة . . يوم . . أسبوع . . شهر . . شهران . . ثلاثة ، أربعة ، لست ادري على وجه الدقة ، مجرّد زمن ، الزمن هو كل شيء ، هو وحده المسؤول عمّا حدث لي من تضخم . .

عجبا . . كيف كنت . . . وعلى أي شكل صرت . . . ؟

لم تعد لي زوائد بالمرة . . . لست أدري كيف تخلصت منها ؟ . . أو هي تخلصت مني ؟ أنا لا أتذكر شيئاً مما حدث لي البتة . . . فقط ، تذكرت أنيّ تكورت على نفسي ، تكركبت . . لم يعد في إمكاني أن أتزحلق . . أن أتسلق . . أن أتجاوز . . . أصبحت مغامراتي ـ أو بالأحرى عذاباتي السابقة ـ مجرد ذكريات باهتة ، بلا لون ، بلا طعم ، بلا رائحة . حتى الجدران اللحمية اللزجة التي كانت تصدمني . . تعترض مدار انطلاقي ، تشجّ من رأسي ، تتقلص . . تتشنج . .

تضغطني . حتّى هذه ألفيتها تناءت . . ابتعـدت عني . . أصبح بيني وبينها فراغ هائل ، مليء بسوائل مخاطية ثقيلة ، [أعتقـد أنه لا حـاجة لكم في وصفهـا]، ترى مـا الذي حدث للجلد الكيسي المعتّم . . ؟هل حـدث به انتفـاخ ؟ اتساع . . ؟ ترميم . . ؟ من يدري . . ؟ ربما حدث كل مـا ذكرت . وربما لم يحدث أي شيء ممّا ذكرت . . . ولكن ما الـذي طـرأ عـليّ أنـا بـالخصـوص . . . ؟ وغيـرني بهـذا الشكل . . ؟

عجباً . . انني أتقن السباحة . . كالسمك تمامـا . . متى تعلمتها . ؟ وكيف . . ؟ ولمه . . ؟

يقولون : الكائن ابن بيئته . . وهذا صحيح الى حدّ ما . . حياتي الراهنة ، لا تتطلب تزحلقا ، ولا قفزا ، أو صـراخا . حيـاتي ـ اللحظة ـ شيء آخـر تمامـا ، يتـطلب مهارات جديدة وانتباهات أكثر جدة . . السبـاحة داخـل هـذا الكيس اللحمي المليء بـالسـوائـل الغـريبـة اللون والرائحة ، كانت أولى خبراتي في الحياة ، اكتسبتها عن غير وعي أو أدراك في بيئتي الجديدة . ليس هناك من بديل . . ولو قدر لكم أن تروني لأغرقتم في الضحك من الأعماق : ضفدع صغير هزيل ، يسبح مع التيار في كل اتجاه ، أكثر

ممّا ينطّ في اتجاه معين ، ضفدع مسته أنسام ربيعيّة منعشة وهي تلاطفه صفحة بحيرة راكدة انطلقت فجأة من عقالها الجليديّ الثقيل ، فهو لا يدري أي المسارب يسلك أو يرتاد . . .

تصوروا أنّي تحمست ـ كالضفدع تماما ـ للابحار في كل اتجاه ، وبكل المدارات والآفاق ، قصد الكشف عن رموز ومعميات كثيرة طالما حيّرتني وأطارت لبّي . .

ما حقيقة تكويني . . ؟ ماهية وجودي . . ؟ دائرة انتمائي . . ؟ كيف تضخمت . . ؟ تشكلت . . ؟ تخلصت من زوائدي . اللامتناهية . . ؟ كيف رُكِبَتْ لي أربع زوائد لا غير . . ؟ والأخرى . . ؟ أين صارت . . ؟ هل فقدت مشروعية وجودها . . ؟ هل بترها جرّاح أريب . . ؟ بعدما خدرني بكل عناية ولباقة . . ؟ أم أن وحشا أخطبوطيا داهمني أثناء غيبوبتي الطويلة . . وابتلع بعض أعضائي . . ؟

أم أني أصبحت في غنى عنها . . ؟ حسب الانتخاب الطبيعي للأشياء والمخلوقات . . ؟ لا حياة . . لا بقاء لغير الأقوى والأصلح . . ؟ .

أنا لا أذكر أن أعضائي كانت تضايقني على صورة من

الصور ، لكن هل أنا ما زلت ـ وقد أصبحت على ما أنا عليه ـ في حاجة ماسة اليها . . ؟ أيكون هناك مبرّر ما لاستمرار تواجدها . . ؟ أم أنها فقدت بالفعل صلاحيتها . . ؟ وأن البقاء للأصلح كما يقول علماء الأحياء . . ؟

يكفي أني تخلصت . . تخففت من كل ما قد يضايقني لسبب أو لآخر . . عدم وجود ما افتقدته من زوائد ، ، لا أعتقد أنه سيؤثر في مستقبل حياتي . . وهذا جدّ كاف لأغلاق ملف هذه القضية ، يكفي أني أصبحت أتنقل ـ عفواً ـ أسبح في محيط مائيّ مترجرج، غامق اللون ، ثقيل الرائحة ، طالما تضايقت منه ، انقبضت ، تشنجت ، لأني كنت كلما حدقت في الغلاف الهلامي الذي يحيط بي ـ اذ كان قد أصبح لي آنذاك عينان أيضاً ـ انتاب رأسي ما يشبه الدّوار . . انزرع في حلقي الغثيان . . القيء . . ما أغرب ما كنت أرى . . وأشمّ . . وأتذوّق . . .

ذات مرة في زمن ما . . تحسست أعضائي ، أعجبني تكويني الى حدّ ما . . تمكنت من تحريك واستخدام ما تبقّى لي من زوائد ، كانت لا تتعدى أربعا ، تبين لي أنّ كل زائدة من هذه الزّوائد الأربع ، تنتهي بخمس صغيرة

متناهية في الدّقة والتناسق ، تتحرك في اتجاهات متباينة تماما . . . كزوائد المستعمرات المرجانية المتواجدة في اعماق البحار ابّان ازدهارها . . تفتحها أو أنكماشها . . .

ليس مهماً ، ولا من اللائق أن أسرد كل ما حدث لي ، كما أنه لا طائل من ذكر كل التفاصيل . . لكن لا بأس ان أذكر نظام تغذيتي فقد ادركت هذه الحقيقة بعد لأي . . كنت أتغذّى كأيّ كائن حيّ . . شربت عصير الفواكه على اختلاف انواعها ، تذوقت لذاذات الخضر الطازجة النيّئة . . والناضجة المطبوخة . . وكل التوابل الأخرى . . حتى الروائح والعطور كان يخيّل اليّ أنني أتشمّمها ، أتحسّسها . . ألمسها . . أراها ، وكلّ ما ذكرت ، وما لم أذكر ، كان يتم في سرعة واتقان عجيبين ، وكل ذلك أيضاً ، كان يصلني عن طريق المشيمة ـ الحبل السّري المشدود في أعلى الرحم . . . بعد شهور تسعة ، بالكمال والتّمام ، كنت قد تدوّرت . . نموت . . كبرت . . اكتملت . . وصرت أقوم بحركات مختلفة ولذيذة ، بعضها مدروس ، مقصود ، وبعضها عشوائيّ ، مجانيّ ، تافه . . واذا الجدران اللحمية اللزجة تصبح أقرب الى يديّ ورجليّ ممّا كانت عليه . . كنت قد نسيت حكاية

النّور تماما . . وحكاية الأقراص أيضـاً . . كنت قد ألفتُ الظلام . . العتمة . . لكن سرعان ما اتضح خطئي . . اذ دون مقدّمات استفاقت في أعماقي الرغبة القديمة . . تلك الـرغبة الموءودة التي طمسهـا الفشل ، استيقـظت فجأة ، ضجت في أعماقي . . ملأت عليّ كل كياني ، حقاً كانت لي رغبات على ما أذكر ، لكنها كانت رغبات مكبوتـة . . مضغــوطـة . . موءودة، لعلمي مسبقــا ، ـ ولتجــربتي الفاشلة في ذلك الماضي البعيد ـ أن الظلمة وحدها ، هي التي تحيط بي ، تشملني من جميع أقطاري ، منذ زمن ليس بالقصير .

الآن نسيت كلّ شيء ، أسجل اعترافي بكل اطمئنان وصراحة . بل وأتحمّل كلّ ما يتـرتّب عليه من تبعـات . فـرغم بغضي للعالم الخـارجي ، رغم كراهيتي ، ازدرائي لـه ، وتقـزّزي من أحيـائـه وأمــواتـه ، وكــلّ أعشـاش ديدانه . . رغم ما ذكرت ، وما لم أذكر ، فقد تولّـدت في دمائي حرارة كـاسحة ، رغبـة ملحّة عـارمة . . غـامضة متضـاربة ، بـين الاقدام والنكـوص ، الاّ أنّي أخالهـا قد وضحت واتضحت ، انها الــرغبـة في الانــطلاق خـارج السجن . . انها التوق . . النزوع . . . الشـوق الى ولادة جديدة ، الى معانقة بحار الشوق المزبدة ، المضاءة بثريات

النجوم ، والمليئة بالدرّ والمرجان . لقد أبحرت في متاهة حلمي الجميل ، يبدو أنني أحلم كثيراً . . أكثر من اللازم ، قلت لنفسي همساً :

ـ لا بأس . . كلّ شيء يبدأ حلماً . . .

فكرت قليلاً ثم أردفت :

ـ لا بدّ من الانطلاق حتّى ولو أدت انطلاقتي هذه الى تحطيم السجن وصلب السجّان . . .

ثرت على طفاوتي . . رخاوتي . . لاجدواي . . في محيطي المترجرج السابح ، المظلم الأنحاء . خبطت الأجواء . . الجدران . . السقف . . وكلّ الاتجاهات . . الأنحاء برجليّ ويديّ . . انفرج الفخذان ، اتسعا . . وعلى الفور ، شرخت طبلة أذني تمزقات لحمية فظيعة . خالطتني حمرة دموية قانية ، أشعرتني بالتقزّز والغثيان . تصاعد الضغط الى حلقي ، كدت أختنق ، تنفست بعمق ورحابة ، اندفعت في حركة عكسية وعنيفة ـ أقصد تشقلبت ـ دلّيت رأسي الى أسفل ، انحدرت . . اندفعت . . أطللت . . . أخيراً أبصرت النور ، . . آه لقد أبصرته . . تخيلوا فرحتي العارمة ، انني أنطّ في كل اتجاه ،

أتحسس أعضائي في كثير من الزهو والخيلاء . كان رأسي برتقالي التدوير أحمر اللّون ، قرمزيّ الشّفتين أفطس الأنف ، ضيّق العينين ، منتوف الأهداب . وبغضّ النظر عن أمور كثيرة ، وأشياء غريبة جداً لم يتوقّعها أحد ، ولا أنا كنت أتوقع حدوثها ، - واذا ما أضفت أني كنت مصابا بما سمّاه الأطبّاء كساح العظام ، أو الكساح النخاعي - وهي حالة مرضية ميئوس من شفائها . . باختصار ، كنت كتلة هلامية متداخلة ومشوهة . . جاءت قسراً - وربما خطأ ، من يدري ؟ - الى عالم غريب رعيب ، كابيّ الألوان ، مرمّد الأكوان . ورغم أنّ العملية - أقصد عملية الوضع - لم تكن قيصرية ولا حتى عسيرة - فقد تقزّز الجميع من خلقتي ، اسْتَغْشوا ثيابهم ، غطّوا أعينهم بأصابعهم ، استبشعوا رؤ يتي . . منظري . . قدري ، اعتبروني لعنة ، نسوا بل تناسوا الجاني الحقيقي الذي ارتكب الجريمة النّكراء في واضحة النهار ، لم يسألوا أيّهما كان مصابا بالزّهري . . أو السّيلان ، هو أم هي . . ؟ أيّهما كان يحمل في دمائه الداء الوبيل . . ؟ ملأوا أعينهم فقط بخلقتي المشوّهة ، خلقتي لم ترق لهم ، لا الرأس ، ولا الجسد ، ولا الأطراف . . لا الألوان ولا الخطوط . . كلّ

شيء تحـرش بي ، ضـدّي . . ثمّ . . ثمّ الصقـوا بي التهمـة . . تبـرّأ الكـلّ منّي ، لم يحـاول أيّ واحـد من الحاضرين الدّفاع عنّي ـ أنا الضّحيّة ـ **أقصد المسخ المشوّه الـذي هو أنـا** ـ وجم الكل ، كمّمت أفـواه الـرّجـال . . تقلّصت سحنات النّساء . . أصيب زمّـارو الحيّ وطبّالـوه بخيبة أمل شديدة . . أمّا العذارى ، فلم تزغرد أيّ واحدة منهنّ ، بل أقسمت احداهنّ ـ وكانت على وشك الزواج ـ أنّها لن تلد أبداً . . .

أمّا التي ولدتني ، أقصد المرأة التي حملتني في بطنها ، ـ كرها ـ فقد أغمي عليها ، وأعتقد أنّها حُملت على الفـور ـ وهذا من حسناتهم ـ الى أقـرب مستوصف في البلدة . . . بقية الحكاية لا تهمّ . . لن أتمكّن من سردهـا على الـوجه الأكمل واللائق . . يمكن أن أحيلكم الى شاهد عيان . . هو وحده القادر على وضع اللمسات الأخيـرة للحكايـة ـ المهزلة ـ فقد أوجزها الرجل على النحو التّالي :

ـ هاج القوم وماجوا ، اختلط الحابل بالنابل كما يقال عـادة في مثـل هـذه الحـالات . . . اتسعت دائـرة اللغط والهـرش والسعـار . تسـرب الخبـر الى شـرطـة الأخـلاق والمحـافـظة عـلى البيئـة الـطبيعية ، حضـرت سيـارة

الفادكونيت* بدلا من سيارة الاسعاف ـ وهذا من بديع مبتكـراتهم ـ ان لم يكن من حسناتهم ـ تـرجّل من جـوفها رجلان ـ شبحان ـ قيل فيما بعـد ، أنّهما لم يبتسما قط ، في سالف حياتهما ، اقتحما الباب الخارجي في عنف وحشي ، اغتصبا حرمة الحجرة ، او حجرة الحريم على الأصح . . زرعا أعينهما في كل الأركان ، كانت الزّوايا شبه معتّمـة ، لا ينيرها الا مصبـاح غازي ضئيـل الشّعلة ، ورغم ذلك أبصراني ، عرفاني على الفور ، لم يطلبا اليّ ، ولا الى أولياء أمري الادلاء بهويّتي ، لم يسألا أحداً ، عرفاني دون كبـير عنـاء . . ثمّ . . ثمّ مارسـا سلطاتهما في كثـير من الـزّهـو والعنجهية ، الكلّ اطمأنّ الآن ، ارتاح ، بـارك الاعتقال في صمت ورضـا عجيبـين ، واذا أنـا أسحب في عنف هستيريّ . . واذا الأغلال توضع في يديّ وساقيّ ، كانت الأغلال باردة ، وثقيلة هـذه المرّة ، صلبت يـداي ـ رغم هلامية أعضائي ـ خلف ظهري المحـدودب المشوّة ، أمـا العينان ـ أقصد عينيّ الضيّقتـين المنطفئتـين ـ فقد وضعـوا عليهـما (عصّابـة) قاتمـة ، رغم أني كنت مصـابـا بعمى الألوان . . . وقبل أن يغادر العسكريان حجرة الحريم التي

---

* شاحنة تستخدم من طرف الشرطة .

لم تعد كذلك منذ لحظات ، وأنا في أيديهما طبعا ، خيّل اليّ أنني استمع الى أنغام سمفونية عسكرية ، أو شبه عسكرية ، ذات نشاز خاص ، ورهبة قاتلة وثقيلة . من حسن حظيّ ، وهذه من فلتات القدر ، لم أكن قد حُرمت جميع حواسي . . كانت حاسة السمع سليمة لديّ ، وكان بإمكاني أن التقط أبعد الذبذبات الصوتية وأخفتها . . ومن ثمّ سار الجميع ـ وأنا تحت رحمة بنادقهم ـ العسكريان والآخرون من الخلف على الأنغام المتنافرة الرهيبة : ارتطام الأحذية بالأرض الصلبة ، قرقعة السّلاح الصّديء ، همهمات الأفواه المشدوهة ، وكان الدرّب مظلما ، والكلاب تتشمّم آثارنا .

حين أنزلوني من الفاركونيت ، بعد حوالى ساعة ، ساروا بي في مسارب معتّمة ومجهولة تغشيها عتمات ثخينة . . .

حاشية غير ضرورية :

ـ عندما تستفيق أمّي ، تعود الى وعيها ، تتحرّر من سطوة التّخدير الذي ألزمها الصّمت أعواما طويلة ، أخبروها أنّ أرحامها ستحبل من جديد . . . وسأولد من جديد . . . لكن بشكل جديد . . .

1972 — 7 — 2



مُطَارَدَة رَجُل .. اسمُه
عَبْدالرَحمن



توطئـة :

ـ جنـد بني العبـاس ، سنـابـك خيلهم تـطاردني ، تلاحقني ، تحاصرني ، نقعها في الفضـاء ، سحابـة رعب تهدّدني . من الزَّند جذبت أخي . .

ـ هيّا نقطع النّهر ، (قلت له) . .

الخيل . . النّقع . . الصّهيل . . الموت . . .
أسرع . . تخطّ . . جاوز . . .
الشّجاعة الصّمود . . التّحدّي . . في أن نهرب . . .
وضعت يدي على فمه ، احتبست أفكاره . . كلماته في حلقه . . .

ـ أعرف ما تفكّر به . . مـا يمكن أن تقولـه ، نحن لسنا جبناء ، ولا أغبياء . التّاريخ قد سجّل هذا ، والناس يعـرفونـه جيداً ، انّمـا الجبن الغباء في أن نثبت هنـا ، أن نقاوم ونحن أضعف ما نكون فى هذه اللحظة . . أن نقع

في قبضة السفّاح كفرخيّ حمام . . .

نظرت في عينيه ، كان حزينا وصغيرا ، أدركت حقيقة ما يعاني ، التمست له أكثر من عذر . . ربّت على كتفه في هدوء مصطنع :

ـ طبعاً ، ما زلت قوياً ، وعربياً . . أليس كذلك ؟ . .

لن نسقط بسهولة . . سنتابع المسير . . قد تهترىء أقدامنا ، تسيل دما ، قد تشحب ألواننا . . تقطر ألما . . حزناً ، لكننا لن ننثني . . ولن ننحني ، ولن نقع . . . أتسمع ؟ . . .

لم يقل الصّغير شيئاً . . هزّ رأسه في حزن . . وربما في يأس أيضاً . . ورغم أنه حاول أن يبتسم ، الاّ أنّ الاعياء كان بادياً عليه . . كان صغيراً ، متعباً ، وحزيناً . . .

الانقذاف :

ـ كانت الضفة أبعد ممّا كنت أتصور ، ارتسمت أعشابها الزغبية الخضرة في حدقتي عيني ، أحسست بها ، بكل أبعادها في امتلاء ، احتضنت الضفة فيما بين الأجفان ، غطيتها بالأهداب . . . احتواني فصل الدّفء

والاخصـــاب . . تململت البـذرة في صلبي . . ارتعشت تبحث عن دفـء امرأة في انتشاء . في أوصالي سرى لسـع ارتجاف ، حرارة كاسحة تولّدت في الدماغ . . تدفّقت في مسارب الخلايا . . ملأت الثقوب . . الفجوات تكدّست الـطاقة . . هـدرت الدمـاء . . تضخّمت العضلات . . بـرزت حبالهـا المورّدة الألـوان ، نفرت نتوءاتها في شموخ جموح . . تسعّرت الدماء اللاهبة الملتهبة في العضل القويّ الجميل البرونزي الاهاب .

انــدفعت . . . انقــذفت . . . انــطلقـت في لجّــة التيّار . . .

الصراع :

ــ أرفـع سـاعـدي المفتـولـين . . أضـرب المـوج في جنـون . . المـوج هــادر مـزبـــد . . الـردى يكمن لي في ثنـاياه . . . الضفـة الـزّغبيـة الخضـرة في حـدقتي عيني ، تدغدغني في وله ، أتهيّج ، انـدفع ، أشقّ المـوج الهادر ، أطفىء اللهب السّاطع . . أمتطي الثّبج المـزبد . . أقهـر المسافات أصلب المجال ، بصدري . . بساعدي ، بكلتا يدي . . .

الفـرات عميق أحسّ بهذا ، دجلة في اصـطخاب ، أرهب أن أغرق ، خناجر الموت تكمن لي ، سيوف الغدر والنّذالة تحدق بي ، تغازلني . . بـريقها يتحلّب شـوقا الى عنقي . . .

شيء من التاريخ :

وكالقضاء كان الموج ، مشاكسا وعنيدا ، كان المـوج ضدّي ، كان عليّ ، وأنت يا ابن أمّي ، يا أخي الصّغير ، ما عدت تقوى على مجابهة التّيـار . . . على مصـارعته . . تمنيّت لـو أنّك لم تنقـذف في لجّـة النّهـر ، قـرأت هـذا في عينيك ، كانت أهداب عينيك مبتلّة بالدّمع ، أو بالمـاء ، وربّما كانت مبتلّة بهما معا . . . من يدري . . . ؟

أغــروك بمعسـول الــوعـود . . . نفــذوا منـك الى السويداء . . سلبوك عقلك ، قلبك . . . بـدأت ـ ودون مـا رويـة ـ تثق في كـلامهم ، رغبت في البقـاء عـلى قيـد الحياة ، كربلاء وراءك ، والنّهر أمامك ، وماذا في مقدورك أن تفعل ؟ . . من يلومك على التشبث باهداب الحياة . . ؟ كرهت الرسوب في الأعماق البعيدة ، الباردة والمـظلمة ، تتبعت انفعـالاتـك عن كثب وربّمـا من بعيـد أيضـاً . . .

من يدري . . ؟ كنت ملء عيني ، مـلء قلبي ، حذّرتـك من عاقبة النّكـوص . . . كشفت لـك بصـوتي المبحوح الضـائـع في الأريـاح عن خـطر الكمـين الخـديعـة ، اللعبة . . . عرَّيت أمامك الفخ الفاغر فاه . . . كنت أنت مقتنعا بكل ما قلته لـك ، كنت تعرف صـدقي ، وعميق حبي . . . فأنا لم أكذب عليك قط ، لكنـك اللحظة ـ لم تحفل بي ، لم تأبه لكلامي ، تخوّفت الغرق ، أرعبك شبح الموت ، هان عليك ، لا بل عـزّ عليك أن تنهش لحمـك الغضّ الـطري أسمـاك القـرش الشّـرسـة ، المتحفّـزة ، اللجوجة في طلب الامتلاء . . .

خـارت قواك . . نفـد مخزون عـزمـك ، تـوقفت ، نظرت اليّ في التياع ولهفة ، كأنّما كنت تودّعني ، كأنّما كنت تعـرف أنك لن تـراني ، لن أراك . . . أبـداً . . أبـداً ، كانت قطرات الدّمع النّبيل تتلألأ فوق أهدابـك . . فوق خدّيك ، على شعيرات شاربك الطّرير ، حـاولت أن أمدّ لك يدي ، ساعدي ، أهدابي ، حدقتي ، عيني ، قلبي ، رئتي . . . لتعبر عليها كلها ، الى ضفّة الأمـان ، لكني لم أتمكّن من إسعافك ، كنت بعيدا عني ، كنت بعيدا عنك بما فيه الكفاية . . . ليتـك ثبتَّ . . تجلدت ، قاومت ،

ليتك ، آه . . . وماذا تجدي الآه . . . ؟

لقد رجعت اليهم ، تخوّفت الغرق ، عدت من وسط النّهر ، كانْ النّهر مزبدا ، مشاكسا وعنيدا ، كـان الموج ، الريح ، الحظّ ، التاريخ ، كربلاء . . . حتّى كربلاء كانت ضـدّنـا . . . تنمّـلت أنـا ، ارتعـشت ، تـشنّـجت ، أجهشت ، صرت لحظتها ضعيفا ، جبانا ، حـاقدا ، أنـا الـذي لم يعرف الحقـد ولا البكـاء . . . ثمّ . . ثم أيقنت أنك هالك . . .

هـا هم قـد انتشلوك مـن لهـوة اليـمّ ، جـذبـوا السنّارة . . . صيد هزيل ، لكّنه شهيّ . . .

ـ لا بأس به (قال أحد الذيول) . . .

جذبوك بحقد . . . أخرجوك . . جرجروك . . .

وتحت أذيـال بردة الخليفـة المـطرّزة بخيـوط الـذّهب الفـارسي وجـدائـل الحـريـر الـدّمشقي ، أقعيت ككلب ذليل ، نظروا اليك في احتقار . . . بصق عليك القائد ، والجنديّ ، والشّاعر التّابع ، والمهرّج العجـوز . . . قهقه الأوغاد في تشفّ وشماته . . . أشار أحدهم اليّ . . . كنت أنـا قـد أصبحت عـلى الضفّـة الأخــرى كنت بعيـدا . .

بعيدا ، وكانت أصداء نباحهم الخافت الممطوط تصل الى سمعي في بحّات متقطّعة نائية جدّاً . . .

ــ ارجع . . ارجع يا عبد الرّحمن . . .

ــ الخليفة يقرؤك السّلام . . .

ــ عـد ولك منه الأمـان . . . الأمـا . . ا . . ن . . ن . . ن

لم أتمكن من التقاط عوائه ، الممطوط كعواء الذئـاب الجائعة . . .

كانت الريح تسفي الرّمال على وجه الفرات . . . على وجهي ، وكـانت أمواج دجلة في اصـطخـاب . . . لكن الجملة الأخيـرة من نـدائهم المبحـوح انغـرزت في أغـوار سمعي . . . غاصت كنصل الخنجر في طيّات لحمي . . .

ــ أخوك بين أيدينا . . ان لم ترجع قتلناه . . آ . . آ . . آ . . ه . . ه . . أعرف هـذا . . أعــرف أنـه سيقتــل لا محـالة . . وأعـرف أيضاً أني سـأقتل . . يمثّـل بي . . . لو رجعت . . .

لو كان السفاح نبيلا كنت امتثلت ، لو كان رجوعي حقـا ينقـذ رقبتـك ، كنت فعلت ، أسـرعت . . . لكني

أعرف وضاعة اَلمعْـدن ، أعرف لؤم السفاح . . . وغدر بني العباس ، أعرف حقد المناكيد الأوغاد . . . أسياد بني العباس ، عبدة النار الخامـدة . . انهم ما جبلوا عـلى غير الـرّجس والنّذالـة . . . مـا زالت النيـران التي خمـدت في الايوان المتصدّع تتضـرّم في أكبادهـم السـوداء . ما زالـوا يحلمون باعـادة التاج المخلوع الى رأس الملك القتيـل . . كيف لا . . ؟ وقد فعلوها . . . ؟

تحت ناظري أسلموك للسياف . . .

جـزّت عنقـك الغـلامي الجميـل بيض الصـوارم الغادرة . . ولغت في دمك النّقي ألسنة الخناجر المنقوعة في السم . . تهاوى الرأس العربي الأصيل . . تدحرج . . . استقـر فـوق بـركـة من الـدم الأحمـر القـاني . . . كفّنتـه الرِّمال . . .

استنشق الأوغاد رائحة الـدم المهروق . . . انتفشـوا كالضباع . . قهقهوا تشفيّا وشماتة ـ في بني أميـة ـ في كل عربي أصيل . . . وفي رجـل تخوّفـوا من أفكاره وأحـلامه اسمه عبد الرّحمن . . .

ألا سجّل . . . ألا سطّر . . . ألا اشهد أيها التاريخ . . .

التّحقيق :

ـ مكانك . . قف . . .
ـ لا تأبه . . (قال صاحبه . .)
ـ لا بدّ من اثبات الهويّة . . اقترب (خاطبني الجندي في صلف) .
ـ اكشف أوراقك (نبح الثاني) . .

قهقه آخرون عن يمين وعن شمال . . في غبش الغروب ، كان السّكر بادياً على سحنهم الناصلة الألوان ، المصوصة الدِّماء . انفلتت من عيني نظرات خاطفة متوجّسة . . . احذية الحراس ـ حراس الحدود ـ ملطخة بالدم والأوحال . . . أوحال قديمة عطنة ودم بشري متخثّر . . .

ـ عجباً . . ؟ أهنا أيضاً تحدث مجازر . . ؟؟

كنت أظن أن (افريقيا) ما تزال طاهرة . . عذراء . . لم تفتضّ بعد بكارتها كلاب الحراسة . . . وأنّ

الأنف العـربيّ مـا انفـك ينتصب في شمـوخ . . ، كنت أظن . . أتخيّل . . .

بكعب بندقية عتيقة ، دفرني في ظهري جندي آخر لم أره ، كدت أقع . . . ترنّحت . . تماسكت . . .

ـ فيم أنت تفكّـر . . ؟؟ عجّـل . . أوراقـك أيّهـا الصّعلوك . . (عاد يسأل الحارس) . .

ـ ليس معي أوراق . . (أجبته) . .

ـ من أنت اذن . . ؟؟ ومن أين أتيت . . ؟؟ والى أين تقصد . . ؟؟

ـ . . . .

ـ لماذا لا تجيب . . ؟؟ يبدو أنّـك غريب وشقيّ . . ومغضوب عليه . . ؟

ـ . . . .

صرخ ذيل ثالث بنفاد صبر :

ـ هيّـا . . . أجب « الشّـاف » بســرعـة ، لا وقت للهـذر . . أكشف عن أوراقك . . ؟ هـويّتـك . . ؟ أيّهـا الكلب الضّال . . ؟؟

تـريّثت قليـلا ، بلعت ريقي . . استجمعت شتـات أفـكــاري ، قلت في اطـمئنــان عـميـق . . . وشمــوخ أصيل . . . . :

ـ تسألون من أنا . ؟؟؟

ـ . . . .

ـ أنـا رجـل عـربيّ حتّى النّخـاع . . . اسمـه عبـد الرّحمن .

ـ هذا لا يكفي . . (ردّ الشّاف بانفعال ظاهر) .

ـ يبدو عليه التّعب والارهـاق . . وسيماء النّعمـة ، (عقّب ظلّ ممصوص جاحظ العينين) . .

ثمّ تسلّقني من أخمصي الى قمّــة رأسي ، وأضـــاف مقهقها :

ـ طـريـد . . شـريـد ، منخـرق النّعـل ، مهلهـل العبـاءة ، شقيّ النّـظرات . . . خـــطيـرهــا . . وبـدون هويّة . . من تكون بحق الشيطان . . ؟؟

تململت في حلقي كلمـات جـافـة . . وددت لـو أني أضفتها الى الجملة الطّويلة الرّائعة التي نـطق بها الحارس (الشّاف) . . لكنّي تداركت الموقف . . قلت :

ــ وأكثر من هذا . . تعبان هلكان . . يمطر القحط في كبدي ، سراب في يـدي . . دم في ذمّتي . . قيظ على كتفي . .

ــ . . . .

ــ ثمّ اني أضعـت الأوراق الـرسميّـة التي تـثبـت هـويتي . . أضعتهـا في أعمـاق النّهـر . . . كـما أضعت ملكي . . . لكن أعـدكم أني سـأسـترجعهـا حتـما . . وستتأكّدون من هويتي وتعرفون من أنا . . ؟؟

رفع (الشاف) احدى يديه محتجّاً . . :

كفى . . كفى هذرا . . . ما استجوبت صعلوكاً أتفه منك . !

حارسان آخران يتبادلان نظرات زائغة بلهـاء ، لكّنها لا تخلو من مغزى . . !!

مطّ أحدهما شفتيه :

ــ أنا لم أفهم . . !

ردّ صاحبه بامتعاض (وقد هزّ كتفيه وزمّ فمه . .) :

ــ ولا أنا . . !

صوت جانبي غير محدّد المصدر :

ــ الرّجل يتحدّث بلغة أهل الجزيرة . . . ملتاث العقل ، يبدو عليه أنّه من النوع الحالم ، يتعامل مع اللغة بشكل خاص ، مرفوض هو ، وغير مرغوب فيه ، يمنع من الدّخول . . . !

الحارسان المحقّقان في هوية الرجل العابر للحدود ، يصمتان . . يغرقان في الصمت . . . أدركت أنّهما يفكّران ، يستجمعان شتات أفكارهما . . أحدهما يهمس في أذن الآخر . . ، يتقدم نحوي ظلّ هزيل ، رائحة عرق كريهة تنبعث منه ، شعرت بالدّوار ، انتابني الغثيان . . الرّغبة في التقيؤ . . . تماسكت . . تفرّس الشبح في عيني . . تسلّقني في ارتياب . . . ظلّ ابتسامة ذابلة على شفتيه ، غرز حدقتي عينيه الجائعتين في كتفي اليمنى . . كانت فوق كتفي زوّادة من آدم . . بها رغيف عيش) وشكوة لبن رائب ، وحفنة تمر من صحراء نجد .

تفقّد الحارس ـ الظل ـ أطرافه بزوايا عينيه ، همس لي : في بحّة مشنوقة :

ــ ها قد سمعت . . . لا يمكن أن تعبر الحدود . .

هـذا أمـر (الشّـاف)، لكن لا عليـك . . . هيـه . . ؟؟ اقتـرب . . مـاذا تحمـل في زوّادتـك . . ؟ أقصـد عـلى كتفك . . . ؟ هل معـك (كرخيـة) ؟ أو (بابليـة) . . ؟ تلك التي يقول فيها شاعركم :

ـ . . . .

ـ خذ . . (قلت دون تردّد) ، هذا كلّ مـا تبقى في باطيتي ، أما فيما يختصّ بالشاعر الذي ذكرت ، فهو ليس منّا لو قرأت شيئا من التّاريخ . . لأيقنت من هو صاحب البيت . . . ؟ لكنك معذور . . .

ثم ناولته الـزوادة التي كانت عـلى كتفي بـ (عيشهـا) وشكوتها ، وتمرها ، وبكل ما فيها . ! .

ابتسم الـظل الجائـع . . . تهلل وجهـه الشـاحب ، تناول الزوادة بيد مرتعشة . . غمزني باحدى عينيه :

ـ عجّـل تخطّ الأسلاك . . أنت لم تـرني . . وأنـا لم أرك . ! . اليس كذلك . . ؟ .

تسلّلت على النور ، وفي حذر شديـد ، بصقت تحت نعلي ، اجتزت الحدود في غبش الغروب . . . حملت الريح الآتيـة من الخلف قهقهات مترهّلة . . أحسست الـريـح

تصفر في العراء ، كـان الظلام قـد نزل . . تخثّـرت دماء أخي القتيـل في كبد الأفق البعيـد . . صـرنـا كـالأشبـاح الضائعة في زئير العواصف ، وكعيون القطط الميّتـة كانت عيـون الحرّاس . . . وكقـرون اليقـطين كـانت رؤ وسهـم المجـوّفـة الفــارغـة الاّ من فكــرة الخمـر . . الجنس . . التّـدخين . . والسّـراب الخادع يعشّش في أغـوار عيونهم الماحلة الألوان . . يغطي خلفها مـدائن عديـدة خربـة ، مهتوكة العذار . . . ، الجنس في شوارعها مباح . . يمارسه علانية كبار التتر ، وزبـانية الجحيم ، وأذيـال (الشّاف) الكبير .

أمـا الحشيش والخمـر الـرّخيصـة ، وعلب السّــردين الرديئة فمن أنصبة الأذيال الصغـار ، والظلال البـاهتة ، وأنصاف الأذكياء والمعتـوهين من الحـراس المرابـطين على حدود الأندلس السليب ! ! . .

خاتمة البداية :

مـع قصف الرعـد العقيم ، عبـر أشـذاء البـطولات الفارغة الموشومـة على جســد التّاريـخ الكسيح ، المتـرهّل الأطـراف ، المقمّط في الأسمال . . ، عبـر هزيم الـرّيـح

المحشـرج في الأدغال . . ، عبـر الزّمن الجـامد المـطحلب لآماد مديدة . . . ، عبر كلّ الأبعاد والمسـافات . . . كـل الجـراحات والـطعنات . . الـوعود والخيـانات ، الهـزائم والانتكـاسـات . . . عبـر كـل شيء ، ومن خـلال كـل شيء . . . ها أنذا أنهض من رماد الفجيعة ، أتـواجد ، أنبثق ، أتناسل ، أتكاثر ، أندفع ، أورق ، أخضرّ بشكل لم يحدث قط في التاريخ ، أسير ، أهـرول ، أكتسح كـل الهراء . . كل الغثاء . . كل الضفادع البلهاء . . !.

لا بدّ من فعل شيء . . أيّ شيء ، يعيد الاستقامة والشموخ للرأس المقطوع والمدفون في الـرمال . . ، طـائر الفينيق لا بـدّ أن ينهض ، من خلل الـرمـاد ، أن يفـرد جناحيه القـويين في سماء الجزيـرة . ما نسيت قط ، ولن أنسى أبداً ، الصوت المبحوح المذبوح المحشرج المستغيث في الأدغـال . . في الفيافي . . في الصحـاري . . انّني مـا زلت أذكـره . . ما زال في سمعي وفي قلبي صـداه . . ، يعـذّبني . . ، يجلدني ، يطعنني نـداؤه . . دمـه . . ثـأره يستصرخني عبر آلاف الأميال ، طاويا الأبعاد والمسافات ، مخترقـا الحـواجـز والأسـلاك ، سـاخـرا من المسـافـات الزّمكانيـة ، هازئـا من شعاريـر المدائـح الرديئـة ، وكتبة

التاريخ المأجورين المزيفين المعتوهين . . باصقا على التراث اللقيط المنحـول . . وعلى كـل دفاتـر الطقـوس الـوثنيـة المسبّحـة باسم الأضـرحة المـوقّرة ، والمستمطرة لكرامـاتها الموعودة !! . .

ها قد اجتزت الحدود بدون بطاقـة ، بدون جـواز ، بدون تأشيرة ، الآن يحقّ لك ـ يا أخي الصغير الذبيح ـ أن تبصق في الـــوجـــوه . . أن تتمخّط في العمـــائـم . . أن تلعن . . تطأ . . تدوس كل اللّحى والصّور . . .

شرايينك المـذبوحـة النّبض ، تتقيّأ زكيّ الـدماء . . تطلب الثأر من نسل الاملاء . . .

يصـــطبـخ المـــوج . . مـــوج دجلة . . الفـــرات ، المتـوسط ، المحيط ، بلونـك الأحمـــر الـزاهي . . تسغب الصحـــراء في خفقـك ، طلع النخيـــل يشقّق ، يتـــآكله العطش . . ، حبّات الرمال المبددة الأسيرة عـلى شواطئنـا السليبـة تلهث في رئتي هـذا الصيف . . وكـــل صيف ، تغازل المطر العـاشق . . تمارس مضـاجعة الحلم المهتـوك العذار هناك . . هنا . . وفي كل مكان . . في (سبتة) ، في (مليلية) ، في (الساقية الحمراء) ، في (حيفا) ، في

(يافا) ، في (الجليل) ، في (القدس) ، وفي الجولان) . .

لست وحدك الذي سفحوا زكيّ دمائه ، أذلّوا أنوف آبائه وشموخ أجداده . . ، زوّروا تراث أمجاده . . .

كثيرون غيرك ، فعلوا بهم أكثر من هذا . . .، بل هم ما زالوا مكبّلين بالأغلال ، مرتكسين في حمأة المهانة والاذلال . . في كل يوم . . بل في كل لحظة ، يصلبون . . يجلدون . . يعذّبون . . يشوّهون . . وأمام عيونهم تنشر لحوم نسائهم وبناتهم . . . وتصادر بكارات عذاراهم الهتيكات الازار - عنوة - المرتعشات الأفخاذ - رهبة - على شواطىء البحار وعلى ضفاف الأنهار ، وفي كل مدن وعواصم العالم المتحضّر ، حيث يقطن آكلوا اللّحوم البشرية . . . يتضاجع بائعو الذِّمم والضمير ، ومزورو التاريخ ، حيث (يتعيّش) على فتات الموائد وثمالات الأقداح ، كل الوصوليين المهرّجين ، وكل الأذيال . . الظلال . . !.

من كل هؤلاء ، سينتقم التاريخ ، ستذبح شرايينهم ، كما فعلوا بشرايينك أنت . . .، سيقعون تحت قدميك . . كلهم . . قائد الجند والسياف ، والتابع ،

والمهـرج ، والشاعـر ،، اذّاك ، ستبصق ـ وفي شمـوخ ـ فوق قصائد المديح ، ومطولات الرّثاء . !! .

لإنْ نزل القحط في الأرض كل هذه القرون .. وأجهضت في أرحام النساء نطف التكوين الواعدة . . فمواسم الحرث والإخصاب ستأتي حتما . . حتى ولو لم يحدث الطوفان. . . وستكون أنت حاضراً أيضاً . . . ستجيىء ما في ذلك شكّ. . . طاوياً مسافات العقم والجفاف. . مخترقـاً الجدران. . الأسـوار. . الأسلاك، كاسراً ثبج الأنواء. . المحال، هازئاً بالبطولات الفارغة الجوفاء، شانقاً كل البيادق . . الأذيـال. . الظلال. . مبحراً نحو الحبيبة المنتظرة. . حاملا إليها لقاح الدفء والاخضرار وأبجدية الولادة الجديدة التي ستخضرّ عبر طقوسها قلوب الملايين من الأطفال المذبوحين وراء الحدود المزورة والمزعومة التي أقامها الصيارفة الغزاة ، والأذيال الوصوليـون والطغـاة المعتوهـون، وزرعوهـا قحطا. . أسلاكا. . ألغاما. . وأقاموا على حراستها أشباحا، بهما - مثقوبة عيونهم . . مجوّفة عقولهم . . لا يبصرون !!. .

حاشية اضافية :

في شـوارع المـدينـة المحـاطـة بـالأسـلاك والجنـود ،

والمزروعة بالعيون والأنوف والآذان ، جلست أستريح من وعثاءِ السفر الطويل ، تهالكت على مقعد ما ، من هذه المقاعد الخشبية الأنيقة ، التي تحتلّ أجمل شوارع المدينة الهتيكة الإزار . . والتي تنتشر أمام كل المقاهي بشكل سرطاني مخيف في كل الجهات ، وعلى كل الأرصفة . . .

ما كادت أنفاسي ترتد الي . . حتى انتصب أمام رجل حليق الشارب واللحية ، لحيم الوجه ، لامع العينين صقيل البشرة ، حسن البزة . . .

انحنى الرجل أمامي في أدب مبالغ فيه وقال :

ــ سيدي . . هل من خدمة . ؟؟!

ــ . . . .

ــ أقصد ماذا تتناول . . ؟ !

ــ لبن بقهوة . . (أجبته هذه المرة على الفور) . .

ــ آسف . . لا نقدم لبنا بقهوة . . أطلب مثلجات أو مشروبات روحية مثلا . . !

ــ عصير برتقال بارد من فضلك . . !

انصرف النادل المهندم الأنيق فورا ، تبعته عيناي . . استقرت دون سابق تصميم أو نيّة على واجهة زجاجية

لامعـة مقابلة ، كـان على الـواجهة عـدّة ملصقـات . . . تبيّنت فـورا ، أنّها بثـلاث لغـات ، وبـأحجـام وألـوان مختلفة . . ، تعنكبت عيناي على الملصقات ، كانت عليها كلمات متعدّدة وبخطّ واضح جداً وبارز أيضاً . . ! .

الملصق الأوّل :

« أخبـار الشفرة تقـول هذا اليـوم : عبد الـرّحمن في الطريق ، الصقر وصل ، تمكن من دخول المدينة بـطريقة ما . . . ربما رشا أحد الحرّاس عَبَر البوغاز . .الأسلاك . . الحدود . . انتبهوا » .

الملص الثاني :

« . . .خـذوا حـذركم . . . كـل من رأى الـرجـل المـذكور ، ولم يبلغ عنـه رجـال الأمن في أقـرب نقـطة ، وبـأسرع وقت . . . يصلب في السـاحـة العمـوميـة امـام الملأ . . وتطعم الطير من مخّه » . .

الملصق الثالث :

« . . . .
. . . . »

لم أتمكّن من قراءته بسرعة ربما كان بلغة أجهلها . . .

انتابتني القشعريرة . . الدهشة ، لست خائفا ، ولكنها المفاجأة ، كدت أقفز من مكاني هاربا ، فأكون قد اعتقلت نفسي بنفسي ، قدّمت مخّي طبقا شهيّا للطّير الأبابيل . . . لكني تريّثت ، حسبت لكل الأمور حسابها . . حوّلت عيني الى جهة ما . . جهة أخرى . . ثانية وثالثة ورابعة . . . ، حدّقت في الجهات الأربع . . كانت الملصقات في كل مكان . . . ، نفس الكلمات ، نفس الخط ، وبنفس الدّقة والوضوح . . ! .

مددت يدي الى كوب العصير النظيف المثلج الذي كان قد نبت أمامي في لحظة ما . . . لست أدري كيف نبت . . ؟؟! ومتى . . ؟! أفرغت الكوب في جوفي ، قذفت قطعة فضيّة اللون ـ أقصد ليست فضيّة ـ فوق الطاولة البيضاء النظيفة . . . انتصبت في شموخ ، خطوت . . كان لوقع قدمي على الرصيف دويّ مسموع . . لم أكترث ، تعمّدت ذلك . . . لم ترعبني الملصقات . . . ولا اشارات الضوء الأحمر ، كنت أخترقها أحرقها ، أحيلها هباء تذروه الرياح . . .

فجأة . . وجدت نفسي أخترق الشريان الأكبر في

جسد المدينة المترهّلة المنكفئة على نفسها في اعياء شديد ربما كان ذلك من فرط السكر . . أو الكبت الذي عانت منه طويلا وما تزال . . .

واذا أنا أتغلغل في الشّعيرات الدموية الدقيقة للجسد المهترىء ، لم ألتفت . . . ليس من عادتي أن أفعل ، رغم أني كنت على يقين من أنّ شيئاً ما . . . ذا بال ، قد حدث ورائي ، حيث كنت أتناول قدح عصير البرتقال المثلج . . . كانت هناك ضوضاء . . لغط متصاعد ، أصوات غاضبةمهمهمة . . !

يقينا أنهم اكتشفوا حضوري . . . التقطوا لي صورة ما . . بأجهزتهم السرية المعقدة . . .

وربما تحلّقوا اللحظة ـ في المقهى حول القطعة النقدية المفضضة اللون . . . من يدري . . ؟؟

بيد أن الريح التي كانت قد بدأت في الهبوب حملت الي عواء نادل المقهى . . ميّزته بسرعة من بين ضجيج الشارع المزدحم :

ـ أنه هو . . . هو بعينه ، أقسم على هذا . . وأراهن ، رأيته بأمّ عيني ، قدّمت له عصير البرتقال المثلج

بعدما اعتذرت له عن عدم وجود لبن بقهـوة . . . أراهن على أنّه هو بلحمه وشحمه ، صدّقوني . . .

انّما كانت غلطتي عدم الاسراع في التبليغ . . . وعلى كل فقد بلّغت . . . أدّيب واجبي كمواطن . . . أنا لم أقع في المحظور ، امتثلت للأوامر . . مصلحة الوطن فوق كل شيء . . (ملتفتا الى المتحلّقين حوله) :

ــ أليس كذلك يا سيّدي الشرطي . . ؟؟!!!.

ــ . . . .

انما الثابت أنيّ بلّغت عن المسمى عبد الرحمن الداخل والمكنى بالصقر . . . بمجرّد ما عبر البوغاز . . الحدود . . الأسلاك . . ودخل المدينـة . . . لقد انتهت مهمتي الآن . . عليكم أن تقبضوا عليه ، وبأسرع وقت ممكن ، قبل أن ينفث سمومه في جسد المدينة . .

وبينما كان المسكين مشفقاً من أن تنهش الطير الأبابيل دماغ رأسه . . كنت أنا أتوغّل في أحشاء المـدينة الضـائعة المعتمة!!!.

مارس / 1973

سِيزيف معَاصر

« مهـداة الى كلّ ذرّة رمـل، ونبة عشب ، ونبضة قلب احترقت دون ما جدوى في بلادي . . . ».

الحلم :

لم يتأكد تمـاما من تـطهير الأرض ، سـاوره الشك ، توجّس خيفة ، خيّل اليه أنّ في الأمر كمينا مبيتاً ، نصب باتقان وبراعة للايقاع بفصائل المقاومة الشعبية ، واجهاض ثورة الجماهير الغاضبة . ! .

رغم الهتافات التي انصبت في سمعه ، والزغاريد التي دغدغت آماله ، ظل متشبّثا بفكرته ، مرتاحا لهاجسه . . غير واثق مما حدث بهذه السرعة الفجائية . . .

صحيـح ان الثمن الذي دفعـه هـو ورفـاقـه ، كـان فادحا ، والنصر كان متوقّعا في أيّ لحظة . حقيقة بديهية ، وأمر مفروغ منه ، ما في ذلك شك ، بالنسبة لشعب يدافع عن كرامته ووجـوده . . . ، بيد أنـه ارتاب لسـرعة تـوالي

الأحداث . . المفاجآت ، أصرّ على الانتظار والتروي . . فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين . . . وتنهّد ، تتابعت الذكريات أمام عينيه ، تمنّى لو يكلّمه أحد في هذه اللحظة الحرجة ، الفاصلة ، الزاخرة بالاحساسات المتضاربة ، والتوقعات الغامضة . . أجال بصره فيما حوله ، بحث عن انسان ما . . عن رفيق ما . . بل عن رفاقه الكثيرين الذين طالما تواجدوا في كل مكان . . . أقضوا مضاجع الدخلاء ، زرعوا الرعب . . الشوك . . الموت في أحلامهم . . أحالوا يقظتهم كابوسا ثقيلا يجثم على صدورهم . . يحطّب حلوقهم ، أجل أين هم رفاقه الآن . .؟ أين هم ليشاطروه الفرحة الكبرى . .؟ ليتملوا بأعينهم أولى تباشير الفجر الجديد الوليد . .؟؟

وتنهد للمرة الثانية ، جل رفاقه استشهدوا . . خضبت دماؤهم الزكية كل نبتة عشب ، كل حصوة رمل ، كل صخرة . . كل غيمة أو نهر في ارض الوطن الحبيب . . .

تذكر كل هذا ، وهز رأسه في حزن كظيم . . . سيروي لأحفاده بطولات خارقة ، تتضاءل ازاءها بطولة

عنتر . . لم يكن له المام كاف بتلك الملحمة الشعبية الرائعة التي قادها ـ أو خاضها ـ الفارس الأسود . . العاشق حتى النخـاع . . من أجل الـذود عن حيـاض القبيلة . . بـل الحبيبة . . . ولكنه كان يعرف أن كفاحات عنتر كانت من أجـل اللون ، والحـالـة المـدنيـة ، أو القبيلة ، وعبلة الفاتنة . . أمّا هو ورفاقه ، فلم تكن مشكلتهم لـونا ، أو حالة مدنية . . أو حبيبة معشوقة . . . هذه أشياء تافهة في نظره ، لم يفكر فيها قط هو ورفاقه يوم أعلنوا العصيـان ـ الثـورة ـ وتسلقوا شعـاب الجبال ، والـرصـاص الغـادر ـ رصاص المستعمر الغاشم ـ يزغرد في أسماعهم بشراهة ، وانما كانت قضيتهم أكبـر من قضية عنـتر ، كانت هنـاك قضية وطن منهوك ، مسحوق ، مكبل بالأغلال ، مرتكس في المذلة والهوان . . أغلال باردة ، ثقيلة ، وهوان ترتمض له الأجسام ارتماضا .

تـرى أين منها قضيـة الفارس الأسـطورة . . ؟؟ لقد انتهت تلك بمجرّد احضار المهر والحصول على رسم ـ طبق الأصـل ـ من الحـالـة المـدنيـة ، بـامضـاء الشيـخ (شداد) . . ! . .

أما هذه ، فـانها لن تنتهي الا اذا أريق على جـوانبها

الدم بغزارة ، ودون حساب . . ! .

وتفصد العرق من جبينه القمحي اللون ، وهو يصعد القمة الصخرية التي احتمى خلفها . . . وصب شآبيب رصاصه المزغرد على ذوي العيون الزرق والشعور الصفراء . . ! .

طرح «صاكوشه»* الجلدي الثقيل على الأرض الصخرية العابقة بروائح الصنوبر والعرعار . . . ، وضع صاكوشه بين ركبتيه . . . أدخل يده اليسرى في جيب سترته الكاكي . . . ، ذلك أنه كان قد فقد اليمنى في معركة ما . . كان قد تعوّد على استخدام اليسرى دون ارتباك ، أو كبير عناء . . . أخرج دخينة تبغ جاهزة بدون مصفاة ، وعود ثقاب يتيم ، بأصابعه المتشقّقة ذات الأظافر المثلومة . . .

حك الكبريت على الصخرة الخشنة ، أشعل الدخينة . . غرزها بين شفتيه ، زمّها جذب نفسا طويلا وعميقا . . نفث سحائب الدخان الداكنة الزرقة بملء فيه وخياشمه ، خالطه شيء من الارتياح ، تأمل حوله الأشياء

---

* صاكوش sacoch : خرج أو جراب .

بنظرة جديدة . . نظرة ثاقبة ومتفحصة . . ثم ما لبث أن تطلع من خلف الصخرة الهائلة ، وأرسل نظرة تائهة . . .

ـ ما زال الشروق بعيدا . . وان تكن هذه تباشير الفجر . . !

قال هذا كمن يناجي نفسه، ثم استرسل في الذكريات، ما زال الأفق ضائعاً في الضباب . . السهل ـ عبر الرؤ ية البصرية ـ مغطى بقلالة كثيفة بيضاء . طيور الغابة ما تزال رابضة في أوكارها ، بيد أنّ هذا كله ، لا يمكن أن يلغي خطوات الفجر الحثيثة ، كان الفجر على وشك الانبثاق . حدث هذا بسهولة هذه المرة . لم يساوره أدنى شك . . لمست يداه أول خيط للحقيقة . . عادت الزغاريد تنصبّ في سمعه حلوة عذبة ، لفحت وجهه الأسمر نسيمات رقيقة باردة . . تلاشى معَها في الأثير . . في جو عابق بذكريات الفداء . . مليء بالظفر والأمجاد ، في شوارع المدن وأزقّتها المظلمة ، في ضيعات المعمرين و « فيلاّتهم »، في قمم الجبال ، في الادغال ، وفي شعاب الأودية الصامتة الا من خرير المياه المرحة المنطلقة في اندفاع جنوني ، متجاوبة بتحريرها الرّقراق مع حفيف الشّجر الواهن المخشخش عبر الطرقات الجبلية الضيقة . . .

ـ يا للذكريات ! .

قـالها ، ثم ابتسم في زهـو وانتشـاء . . . لم تـذهب جهـوده وتضحياتـه أدراج الـريـاح . . . قـريبـاً ستشـرق الشمس . . قـريبا . . قـريبا جـدّا ، وربمـا الآن . . من يدري . . ؟؟

وفي غمرة من الحنان الدافق ، ودون ما رغبـة منه ، فكّــر في داره الصغيـرة ذات القــرميـد الأحمــر والسقف الواطىء . . في زوجته الجميلة الوفية الصبور . . . في ولده البكـر والـوحيــد « اقبـال » ، يقينــا هـو الآن في عمــر الزهور . . ! .

وحــاول أن يتــذكــر ، يــوم ودّع زوجتــه ليلتحق بالمجاهـدين . . كان طفله آنـذاك ما يـزال في الأقماط ، يلتقم ثدي أمّه في عناء ، أمّا اليوم ، وبعد سنوات طويلة شـاقّة من الغـربة والتضحيـة والكفاح ، يقينـا أنّه كبـر ، تدور . . برعم . . صـار طولـه ذراعين . . ثـلاثـة . . أربعة . . وربّما أكـثر ، يقينا سيتعـرف عليه ، يلتقـطه ، يحتضنه . . يقبّله . . يـ . . . وتوقّف فجأة عن مجاراة خياله الوثّاب، فقد تذكّر أنّه بيد واحدة . . ! .

لم يبتئس للفكرة البشعة ، للشعور الحاد الذي اخترم

قلبه . . كان ذلك ثمنا لا بد من دفعه في مثل هذه الظروف الصّعبة ، وفي كثير من الأحيان تحدث مثل هذه الأشياء . . بل ما أسعده بما حدث له . . ! دفع الثمن من لحمه ودمه ، من أجل أن يعيش اقبال ، يذهب للمدرسة ، يلبس ، يتداوى ، يعمل ، يسافر ، يرقص ، يغنّي ، ويحلم . . . كلّ هذا يهون من أجل الوطن . . المبدأ . . الحب . . الأولاد ، من أجل المستقبل الباسم الندي الذي يجب أن نضمنه لهم ، بل يجب أن نصنعه بالدم والرصاص . . !

ما شك قط في أن الدنيا ستتغير ، وأن واقع اليوم سيكون غير واقع الأمس ، وكيف لا . . ؟؟

وهو الذي حمل السلاح منذ زمان . . من أجل تغييره ، وتصحيح أو ترتيب أشيائه . . قيمه ومعتقداته . . ؟؟

إنه ما فعل ذلك ، هو ورفاقه ، ما تمنطقوا بالرشاشات والبنادق الاّ ليعيدوا تركيب الهرم الاجتماعي المتعفّن على أسس سليمة ، مهما تطلّب ذلك من تضحيات . . . ولو أدّى الى بتر ذراعي ، أو تصفية جسدي . . . قريبا ستشرق الشمس . . هذه تباشير الفجر الوليد . . . لكم

هي حلوة وعذبة مثل هذه الزغاريد التي تنطلق من حناجر نسائية دافئة ولذيذة . . . عذّبها الكبت والحرمان . . . انها تترنم وترن احتفاء بمقدم الحرية الحبيبة . ألا انطلقي أيتها الشمس . . اشرقي . .

ارسلي أشعتك القوية الساحرة لتطهّري الأزقّة المظلمة ، والدّروب الموحلة المعفنة . . .

ابشري يا أمّاه . . ! غنّي يا زوجتي . . ! زقزق يا ولدي الحبيب . . ! وابتسم في أعماقه ، لم يسعه الفضاء ، كاد يطير من الفرحة . لو كانت له أجنحة عصفور . . . أو حتى اجنحة فراشة ، لعانق الأحزمة الذهبية ، المتدفّقة في سخاء ، عبر الأرض والسماء . . ها قد عادت الزغاريد تنصبّ في سمعه . . انه لا يملك الاّ أن يهتز من الفرحة . . ان ينتشي بامتلاء . . .

لفظ عقب الدخينة ، داس عليه ، سحقه بكعب حذائه العسكري الضخم ، بصق عليه ما تبقى من رائحة التبغ في فمه وهو يقول :

— الى الجحيم . . الى الجحيم كل العيون الزرق . . والشعور الصفراء . . لقد دفنّا ايامكم الى غير رجعة . . يا

لها من ذكريات مريرة . . . بغيضة وأليمة . . !!

الى الجحيم كل سنى الحجر والحماية . . !!

ثم تناول صاكوشه الجلدي الثقيل ، الباهت اللون ، شدّه الى ظهره دون كبير عناء ، كان يتقن العملية جيدا من كثرة ما تدرّب عليها . . . حمل رشاشه في عزم وثبات ، وانطلق يسابق الريح الرخية المتمهلة ، هابطا قمة الجبل نحو المدينة ، وكله فرح وانتشاء وأمل . . !!

اليقظة :

أشرقت شمس ذلك اليوم واهنة رمداء ، عندما أشرقت كان عند مشارف المدينة . . . لم ترق له طلعة الشمس حين استقبلته ، كان يظن أنها أجمل مما هي عليه الآن . . ! نظر اليها بامعان وتحفّظ . . . الجمال يغشي الأبصار . . لكن بصره لم يغش ، انّها ليست جميلة للحدّ الذي كان يظن ، لذلك ظل ينظر اليها دون أن يطبق جفنيه ولو للحظة واحدة . . !

كانت باهتة صفراء . . . معصوبة الجبين ، كأنّها صبية مسلولة ، بل لاحظ أنّها قذرة . . . على وجهها الشاحب لطخة سوداء . انقبضت نفسه . . خامره

احســـاس غـامض بهم . . مثقــل بـالقتــامــة ، لاهث الأنفاس . . . مطارد من طرف قوّة ما . .

كيف يمكن أن يحدث هذا . . ؟ ومتىٰ حدث . . ؟ بل كـيف تـغيـب عن بــالــه مــثــل هــذه الأشـيــاء . . ؟ المفاجآت . . . ؟!

قد يكون واهما . . أو متشائما . . وعلى كـلّ ، لا بدّ من التغلّب على هذه السّوداوية المفرطة . . لا بدّ من تجاوز الأحـزان الخـاصّـة ، صحيـح أنّ الـطريق كـان طـويـلا والوصول الى المدينة كلّفه الكثير ، لدرجة أنّه لم يعد يتذكر كم يـوما قضى في طـريقه الشـاق الـطويـل ، ليصـل الى المدينة . . ؟؟

لعلّه التّعب . . الأرهاق . . الجوع . . وأشياء كثيرة من هذا النوع ، هي التي جعلتـه يبدو هكـذا . . . يفكّر على هذا النّحو. . .

كان فقط تعبا ، جـائعا ، قـذرا ، منهكا ، لا يقـوى على تحريك ساقيه ، هذا كـل ما في الأمـر . . . ولكن ما مصــدر هــذا الاحســاس القـاتم الــذي يـكتـسحــه

اكتساحا . . ؟؟ يرغمه على التدلّي في بئر بعيدة الغور ، جليدية العتمة . . ؟

لم يكن في نيّته أنّ المدينة ستفاجئه بزينتها الطارئة ، كان يعرف أنّها ستحتفل بالظّفر المعقود ، شيء طبيعي وتشرب نخب أبطالها العائدين من ميدان المعركة - تقليد قديم - لكن المدينة كانت جثّة هامدة ، جثّة متعفّنة ، وكانت الشوارع مقفرة ، القطط والكلاب تلغ في العفونات ، تنبح ، تتهارش ، تنوء . . تهرّ . . بقايا زينة هنا وهناك ، أعلام ورقية أشرطة حمراء وخضراء وزرقاء ، علب كرتونية فارغة . . وأشياء أخرى . لا شكّ أنّهم فرحوا بعمق . . رقصوا لحدّ الانتشاء . . شربوا حتّى الثمالة ، ثم ضاجعوا نساءهم لدرجة الغثيان . . القرف ، أخيراً ، وقبيل وصوله بزمن قصير ، قصير جدّاً ، استغرقوا في نوم لذيذ . . !

يقينا قد تأخّر هو. . . لم يشارك في الاحتفال. . لم يتلقّ باقات الزهور. . لم تضفر له زوجته أكاليل الغار. . !

أشياء تافهة . . تافهة جدّا ، لا وزن لها ، وليس في

نيّته أن يطالب بنصيبه منها . . .

هنيئاً لهم بالظّفر ، بالأكاليل ، بالأنخاب . . .
ولكن . . . كيف فاته كلّ هذا . . ؟؟
كيف حدث . . ؟ وبهذه السرعة . . ؟؟
أين كنت كلّ هذه المدة . . ؟؟
هل كنت جريحا في مستشفى . . ؟؟
هل كنت مسجونا في زنزانة . . ؟؟

هل أفقدتني الذّاكرة ـ وأنا في طريق العودة ـ شظية قنبلة طائشة . . ؟ فكان أن تخلّفت عن الركب . . . ؟! ركب العائدين . . ؟! أشياء كثيرة انثالت على دماغه ، لم يستطع لهما جوابا .

انّه لا يكاد يتذكّر شيئا ممّا حدث . . .

انّه لا يملك الاّ أن ينسحب على عجل ، يجرجر جسمه المزين بألف ثلم وندبة ، الى الطرف الآخر من المدينة الهامدة التي كانت في تلك اللحظة قد بدأت في التثاؤب . . التمطّي . . . تدعك عينيها في تثاقل بليد . .

وعجب كيف أنّه لم يتمكّن من التّعرف على أيّ وجه من تلك الوجوه التي كان يعرفها فيما مضى . . ! وشيئا

فشيئا أدرك أنه ضائع في شوارع مدينـة جاحـدة ، مدينـة مومس ، تنفتح لكلّ طارق ، ولو بدون مقابل . !

أدرك انّـه يسير دونمـا اتجاه ، كـالضّـارب في التّيـه ، جغرافية المدينة هي الأخرى ، قد تغيّرت . . . كل شيء بدا له غامضا ، ومـريبا . . . هنـدسة البنـايات ، وجـوه النـاس ، ألوانهم ، نـظراتهم ، لهجة كـلامهم ، طـريقـة مشيهم . . . وحتّى النساء ، كانت وجوههنّ متشابهة . . . وحّدت الألوان . . الأصباغ كل خطوطها وقسمـاتها . ولم يصدّق ، أسقط في يده . . ماتت حروف الكلمـات فوق تضاريس لسانه . . !

أراد أن ينتزع تفسيراً من أحد المارة ، أن يحـلّ رموز الشفرة . . أن يسأل عن زقة (كذا) ، بحيّ (كذا) . . . عن امرأة جميلة اسمها (كـذا) . . عن طفل واعـد اسمه (اقبال) . . . عن أشياء كثيرة يحسّها ولا يدري بأي لغـة يعبّر عنها . . . ودّ لو يسأل ، لكنّ السؤال الجـائع مـات على شفتيه من طول ما انتظر لحظة الأنطلاق . . !

حـدّق في عمارة عـالية ، حـديثـة البنـاء ، شـاهقـة

الآسوار . . كاد يغمى عليه . . . لم يستطع التحـديق الى أعلى . . !

دمعت عيناه من فرط القهر ، مثل الحصى أخذ ينبت في محجريه .

ـ لا يمكن أن تكون هذه العمارة الفارهة هي داري الصغيـرة ذات القـرميـد الأحمـر ، والسقف المنحني . . . والباب الخشبي « المهترىء » . . !

فكرة مستبعدة ، لا يمكن أن تخـطر ببال ، لكن مـع ذلك ، يخيّل اليّ أنّ داري كـانت هنا . . (. . .)، ربّمـا في هذا الشارع ، الواسع ، ربّما في هذه الساحة التي أصبحت تحمـل اسم : (. . .)، وربّما في هـذه الجهة أو تلك من المدينة ، وربّما في هذا المكان بالذات . !

ورفس الأرض بقـدميـه ، ثمّ تـطلّع من جـديـد الى العمارة الشاهقة . . :

ـ يقينا انّها هنا . . في جوف هذا التّنين الهائل الجثة والامتداد . . .

ـ ينبغي أن أسأل . . أن أعرف . . أن أرى . . أن أقتنع . . !

ـ كيف حدث هذا. .؟ كيف بـدأ . .؟ كيف تطور. . نما. . اكتمل . .؟

ـ أشياء تدعو للحيرة ، للعته ، للجنون . . . !

أين داري . .؟ أين زوجي . .؟ أين طفلي . .؟ بل أين أنا . .؟؟

ولم يجبه أحد ، لم يعره الآخرون أيّ اهتمـام . . . لا بائع الخبز ، ولا بائـع اللبن . . ولا سمسار الكـراء . . . بل أنّ بواب عمارة ما ، زريّ الهيئة لم يكلّف نفسه مشقّه التّحديق في عينيه . . قال له بجفوة :

ـ لن أسمـح لـك بـالـدّخـول . . أنت غـريب عن العمارة . . !

تسلّق كل الوجوه ، تفرّس في كلّ السّحن ، حدّق في كـلّ العيون ، استنـطق في صمت ، آلاف الأفواه ، لكن دونمـا جدوى . . ! كـان يبول في كثيب من الـرمـال . . ! أنكره الجميع ، كلّهم تحاشوا النظر اليه . . ! ربّمـا سحنته تبدّلت ، ربما نـظرته ، ربمـا هيئته ، آمـاله . . أفكـاره أو أحلامه . . !

شيـخ الحارة هـو الآخر ، لم يتعـرّف عليـه ، غمـزه

بكلمـات مبهمة غـير محدّدة المعنى ، ضبـابية ، مهتـرئة ، تنضح غثيانا وقيئا ، فلما لم يفهم ، أو تظاهر أنّه لم يفهم ، رفض شيخ الحارة أن يسلم له شهادة تـزكية ، للحصـول عـلى شهـادة سكنى ، ليحصـل بـواسـطتهـا عـلى بـطاقـة تعريف . . . !

ــ أولا تعرفني يا عمّ . . ؟؟؟

ــ . . . .

ــ أنا الذي . . . . .

ولكن الشيـخ سدّ أذنيـه . . ملأهمـا قطنـا ، خشّب ظهره في وجهه . . !

لم يبق أمامه الاّ أن يسبّ .

صـــرخ . . سبّ . . بصق من شـــدّة الـقــرف . . الاشمئزاز ، امتلأت عيناه بالدّموع ، شعـر بالاختنـاق ، غازلته شهوة القتل . . أحس بشيء ما فوق كتفه اليمنى ، يكـاد يقصم ظهره ، قلبـه ، روحه . . مســح كتفه بـاليد اليســرى . . . لا شيء البتّـة . . . لعلّه مجــرد تعب . . ارهاق . . أوهام ، لكنّ الثّقـل ازداد فوق كتفيـه ، تخيّله جسـما خشنا ، صلبـا ، بالـغ الثّقل . . . يقينـا هـو ليس

(صاكوشا) ، ولا رشّاشا ، ولا حتّى بندقية لصيد العصافير . . !

هذه أشياء انتزعت منه منذ زمان ، منذ أن دخل المدينة المومس ، المدينة الجاحدة التي ظلّت ترفضه منذ زمن ليس بالقصير . . ! الآن وبعد ستّة عشر عاما ، أدرك فقط أنّ مدينته قد رفضته . . ! هل هو في حلم . . كابوس . . ؟؟؟

انّه يرزح تحت ثقل بالغ الوطأة . . انّه جسم بارد صلد ، خشن الملمس ، ناتيء التّجاعيد ، يشبه تماما تلك الصخرة العظيمة الرمادية اللون التي تقتعد قمّة الجبل ، والتي طالما اندس خلفها أيام المقاومة . . أيام حرب التحرير ، وصب نيران مدفعه الرشاش على جنود الاحتلال . . .

وللتوّ ، تدفّقت في مخيّلته أنهار كاسحة ، طميها في تخثّر لون الغروب . . . لعلّه الدم . . . دوى في سمعه افنجار قنبلة ناسفة ، مدمرة ، صكّ أذنيه صرخة جندي شاب أزرق العينين ، أشقر الشعر ، غضّ الاهاب . . . حصد خصره الممشوق وابل من رصاص . . ! لكنّه في

نفس اللحظة ، أحس بعضو ما ، ينفصل عنـه .. يغادر جسده الى غير رجعة .. !

غشيّه الألم ، غامت عينـاه ، تماسـك تهاوى ، سقط على الرّصيف المتّسخ ، قرقـر أحد الأطفـال .. أغرق في الضحِك .. شاركـه آخرون ، رفـع بصره اليهم ، غـرز عينيه المتعبتين الجائعتين في أجسادهم الناحلة الممصوصة ، في أفكـارهم البدائيـة الساذجـة ، في أحلامهم الكسيحـة المشلولـة ... كانـوا كلهم في عينيه كـالأشبـاح ، كـانـوا كالظّلال ... ظـلال قاتمـة قذرة ، ملطّخـة بالأوحـال ، مهلهلة الثياب ، ناصلة الألوان .. !

نظر اليهم في حزن .. في غيظ .. في قرف .. وربما بعـاطفة غـير محدّدة المعـالم ... حدّق في وجـوههم ، في عيونهم في ضياعهم وتشردهم ... ذعر الأطفـال ، كفّوا عن القرقرة .. خنقوا الضحكات المهزولة الجائعة الميتة في أعمـاقهم الحزينـة المجدبـة . تقهقـروا .. تـراجعـوا الى الوراء .. الى الخلف .. الى الظلّ البـارد المعتم ... ثم أطلقوا سيقانهم للريح ، غابـوا في عطفـة الدرب المـوحل العطن ...

ابتسم الرجل في كمد وحسرة ، وتمتم في اعياء :

ـ من يدري . . . ؟؟؟ (وتنهّد) ربّما كان اقبال أحد هؤلاء . . ؟!

ديسمبر/ 1972 .



جثّة في زمن الظهيرة



أنفلوانزا مزمنة :

بزغ قرص الشّمس ، نبت في نحـر الأفق ، تسلّق ـ كنبات العلّيق البرّي ـ جدران الفضاء . . غمـرت أشعته الباهتة اللون فراغات السّماء ، تساقطت الأحزمة الذّهبيـة الدافئة على وجه المدينة المجدور ، صفعت الوجه الكئيب في نذالة ثلجية الأصابع . . . تململت المدينـة ، أحسّت في بـلادة لسعـة الصّفعـة . دعكت عينيهـا ، تثـاءبت ، تمطّت . . . هرّت الأبـواب المهترئـة الأظلاف ، غـرغرت المداخل والشّوارع والأزقّة ، تقيّاءت بكثافة منفرة للنـظر . توالدت الخطوات المتعبة على اسفلت الرّصيف القذر. . . تواجدت ، تكثّفت بشكل ملحوظ ، ومع ذلك ، لم تنبعج الحـواجـز ، ولا انهتكت الأغشيـة الصّفيقـة. . . بكـارة الصّمت جدّ ثخينة، لكأنّما الحناجر في أزمة زكام حـادّة ،

تقطّعت أوتارها ، بحّت أصواتها ، خمد رنينها ، نبراتها . . همساتها . . أختلاجاتها . . لم تنزّ ، لم تنبثق . . لم تتدفّق ، لم تسل ، تعثّرت الصّرخات التي لا أصداء لها في لهوات الحلاقم . . اختنقت في أقبية الحناجر ، ماتت بين تضاريس الألسن والشّفاه . . . !

كلمات متقاطعة :

كنت أجهل أصل الحكاية تماما ، لم يكن لي أدنى علم بما حدث ، فقط نبتت الوجوه في عيني بشكل سرطانيّ مخيف . . أقصد كلّ الوجوه التي أتخمت الشّارع غصبا واعتسافا ، كانت تتخبّط في كلّ اتجاه ، ولا تقصد أيّ اتّجاه . . !

لاحظت أن الناس في منتهى الكآبة والانسحاق عيونهم غائرة محاطة بأهلة قاتمة ، سحنهم ترابية الألوان مترهلة الخطوط ، خالية من أبسط التعابير الانسانية التي تلازم الوجوه بداهة ، لكأنّما فاجأتهم الشيخوخة في منعطف الزقاق، فمسختهم مسخاً ، وأحالتهم دمى مسطولة . . . !

أعدت التّحديق في الوجوه الساهمة ، تذكّرت الآية الكريمة : ﴿ وجوه عليها غبرة ترهقها قطرة . . ﴾ ، بدت

لي العيون مرّة أخرى ، كحفر البراكين المنطفئة على سطح كوكب ما . . منذ ملايين السّنين ، مجوّفة ، داكنة ، سوداء لا أثر فيها لاختلاجة حياة . . تأمّلتها أخيراً ،ـ وقد سئمت اللعبة ـ في برود ، أقصد وجوه الآخرين . . (كنت أنا الآخر قد نزلت الى الشارع اثر احساسي بلسعة الصّفعة . .) ، لم أكترث . . . لم أهتمّ . . . ، صحيح أنّي فوجئت ، لكنّي ما لبثت أن تداركت نفسي ، تذكّرت أنّنا قد تعوّدنا على مثل هذه المناظر البائسة المكرورة . . . أقصد الوجبات المخلّلة والمتبّلة في نفس الوقت . . . انها ادامنا ، خبزنا اليومي أو تكاد . . . ! ومع ذلك أحسست هذه المرّة بشيء غير عادي يجري داخل المدينة ـ الشّيخة المترهّلة ـ هذا الصّباح ، ممّا كلّفني مشقّة التّحديق في عشرات الوجوه العديمة الألوان بعينين مجوّفتين منطفئتين كعيون الآخرين تماما . . . هززت كتفي في استخفاف ، زممت شفتي في اشمئزاز أمام هذه (الطابلوهات) الباهتة الأصباغ ، بل الدّيكورات الكرتونية التّرابية الألوان . انّها أشبه ما تكون بأشباح كرنفال عتيق يجوب شوارع المدينة في عيد رأس السّنة الميلادية . . . !

وجـوه مرمّـدة الألوان ، منسحقـة السّحن ، عـديمـة الاحساس .

ـ آخ . . تفو . . !

رفعت يـدي اليمنى الى أعلى، كـانت يـدي جليـديـة الأصابع ، لكأنّما غادرتها الدّماء . . رفضت أن تسري في أعراقها ، لم أرفـع يدي لأحتـجّ ، فأنـا لا أمارس زراعـة الألغام . . أنا رجل أعيش على قدّ حالي كما يقولون ، وانّما رفعتهـا عـرضـا ، تحسّست ـ دون سـابق نـيـة ـ صفحـة وجهي ، اصـطدمت أطراف أصـابعي بنتوءات وأخـاديد تنتشر على صفحة وجهي ، تساءلت في جدّية هذه المرّة بيني وبين نفسي ـ لا غير ـ :

ـ ما معنى هذا . . ؟

ـ ما وظيفة مثل هذه الأشيـاء التي تقتعد ـ في نـذالة واطمئنان ـ صفحة وجهي . . ؟؟!

ـ . . . .

ولمّـا لم يجبني أحد ، لم أتلقّ جـوابـا ، صـرخت مـرّة أخرى داخل ظلمة نفسي :

ـ هـل أنـا حقّـا في حـاجـة مـاسّـة الى مثـل هــذه

الأشياء . . ؟ رأسي مثلا . . ؟ أو مخّي . . ؟ أو عيني . . ؟ أو أنفي . . ؟ أو أيّ عضو آخر . . ؟ ! هـل أنا ملك لهـذه الأعضـاء . . ؟ ـ الأشيـاء ـ . . ؟ أم أنّ هـذه الأعضاء ـ الأشياء ـ ملك لي . . ؟!

هـل بـامكـاني أن أستخـدمها . . ؟ أسخّـرهـا . . ؟ أستغلّهـا . . ؟ أستفيـد منهـا بشكـل كـاف . . . مـرض ومريح . . ؟!

ترى هل أفهم الآن ما يجري في المدينة . . ؟

شككت في هذا ، بل في أكثر أشياء هـذا الزّمـان ، وفي كـلّ النّاس أيضـاً . . لقد ثبت لـديّ بما لا يـدع ذرّة شكّ ، أنّ مثل هذه الأعضاء ـ الأشياء ـ معطّلة فعـلا . . محالة على التقاعد . . !

اكتأبت للفكرة ، شعرت بالحزن يجتاحني ، يجتاح كلّ كياني . . . تساءلت من غير أن أتوقّع ، أو أنتظر جوابا :

ــ كيف يمكن أن يحدث هذا . . ؟ ولا نزور أو نتشير أطباء . . اختصاصيين في الموضوع . . ؟؟!

ونبتت في دماغي فكرة ، فكرة ما . . ليست واضحة للحدّ الذي أتمكن من التّصريح بها . .

تحسّست أنفي في حذر ، كان أنفي ممتلئا بالمخـاط ، هزرت دماغي الغبيّ ـ عفوا العبقريّ ـ كان هو الآخر على ما يبدو مجوّفا فارغا. . حدّقت من جديد ـ لكأنّما أستنجد ـ في متاهات الشّوارع المتداخلة. . في العمارات الفارهـة ، في شــرطي المـرور العجــوز ، في الـرّاجلين المتبـاطئين والمســرعـين ، في السّيــدات ذوات المـاكسي ... وفي الفتيـات الشقيات المتقصفات في آخر مـودة للمكرو. . ! حدّقت في كل الأشياء. . الظّلال. . الاتّجاهات ، تأمّلت كـلّ الخـطوط . . الألــوان . . حـاولت أن أفهم . . أن أنصـرف كـما يقـول أهـل النّحـو . . بيـد أنّي كنت فعـلا جامدا . . لا ينصرف. . !

سمعت أصواتا من كلّ الجهات ساخرة متداخلة :

ـ غبيّ . . غبيّ . . غبيّ . !!!

وعلى الفور تذكّرت ، أنّي لم أوفّق هذه الليلة بالذات ـ ولا حتّى في هذا الصّباح المبـارك الميمون ـ لحـلّ الكلمات المتقاطعة في المجلّة الأثيرية الشيقـة أقصد تلك المجلة التي تسمع ولا تقرأ. . . !

نفس العجـز انتـابني الآن . . . وربّمـا لازمني طـوال

حيـاتي . فأنـا حسب مقاييس ارازة الـذكاء دون المتـوسط بقليل . . لا يرجى منّي كبـير نفع . . . فـلا غرو اذن ان عجزت اللحظة عن تفسير ـ أو قراءة ـ طـلاسم المربّعـات المتداخلة الذائبة عبر دقائق الأثير . . .

ولكن ان شئت الحقّ ، أقولها صـراحة ـ لقـد ساهم المـذيع نفسـه في تعتيم دمـاغي ، تعجّبت ـ رغم كفـاءتـه المهنية ـ وطول دربته في اللّعبة ، وخبرته الطويلة في اذاعة النّشرات الاستثنائية ـ كيف أنّه لحدّ الآن ، لا يحسن نطق الرّاء ، ويخلط بين التّـاء والثاء . . وظلّت نبـراته ـ طـوال فترة الارسال القصيرة جدّاً ـ تنضح بلثغة طفولية ساذجة ، لكأنّما هي تتمـرّن ـ وفي بطء مقرف ـ عـلى الحبو البـدائي فوق تضاريس اللّسـان . . . لعنت جينات الـوراثة ، ربّمـا كـانت « كرومـوزمات » الـذّكورة ، الأنـوثة ، البـلادة ، الـذّكاء . . . غـير متكافئـة في تكوين جبلّتي ، اذ لـولا ما يسري في أعراقي من دماء البلاهة والغباء لكنت توصّلت الى الحـلّ الصّحيح للكلمـات المتقاطعـة بمنتهى السهولـة ودون كبير عناء . . . !

فنجان قهوة :

وتساءلت منتهى البلادة :

ـ هل قذف بها من نافذة ما . . ؟ نزلت مع أنداء اللّيل . . ؟

نبتت من رحم التّراب . . ؟ تقيأها الشّارع . . ؟ انبثقت . . ؟ تواجدت؟ تناسلت . . ؟ كيف؟ متى؟ ولمه . . ؟؟؟

لا أحد يدري . . ! كل ما يعلمه سكّان المدينة المجدورة الوجه ، أنّ الصّبح الذي طالما ترقّبوه بفارغ الصّبر ، قد انجلى عن جثّة مشوّهة الخلقة ، مطموسة المعالم ، مجهولة الهوية ، تهامس ظلّان ملتحمان متداخلان يقتعدان كرسيين توأمين في « كافتريا » السّنترال . . .

كان هذا عندما نبت قرص الشّمس في نحر الأفق ، كانت اللّطمة قاسية جدّاً ، وبشعة جدّاً ، للدرجة التي لا تحتمل ، أصيبت الحناجر على أثرها بسدّة زكام حادّة ، تسمْكت ندف الثّلج في الشّرايين والأوردة لدى رؤ ية الجثّة الهائلة التي كانت مكركبة على ظلّها ، مشحوطة في دمها المسفوح ، المتخثّر ، اللاّمع وسط الشّارع الرّئيسي للمدينة الكئيبة . . . كان منظر الدّم كريها . . مفزعا ورهيبا . ساح على أرضية الشّارع غير المرصوفة ، تجمّد ، اسودّ لونه ، صارت له رائحة الجلود النّيئة المحترقة في

صبح بليل برذاذ مطر خريفي داكن . . !

بماذا أحسست لحظتئذ . . ؟ (وأنت تتفرّج على المنظر . . ؟)

أجاب الثاني :

ــ مثلك تماما . . . (وان كان بي شيء غير يسير من البلادة والغباء . .) .

علّق الأوّل :

ــ كلّ شيء غامض ، مريب ، متداخل وضبابيّ هذه الأيام . . . !

ــ . . . .

حدّقت في الظّلين الملتحمين ، تعنكبت عيناي على الوجهين الذين في لون التّراب . خمّنت أنّهما أحسّا بزوائد العنكبوت تتسلّق الأشياء الغريبة ، المعطّلة ، النّاصلة الألوان ، والتي تقتعد في نذالة صفحتي وجهيهما ، كفّا عن الحديث ، وبدت بصمات البلاهة أكثر وضوحا على ملامحهما . . تتخّنت بكارة الصّمت ، تمرّد . . تعذّر الانزلاق ، شعرت بتأنيت الضّمير ، تذكّرت الآية الكريمة :

ـ ﴿ ولا تجسّسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا . . . ﴾ .

تفصّد العرق من جبيني الباهت اللّون ، قذفت بعيني داخل فنجان القهوة . . رفعت الكأس ، رشفت دونما رغبة ، كان السّائل الحالك السّواد في طعم الحنظلّ ، نسيت تحلية الفنجان ، كانت طوبات السّكّر الثّلاث ، ما تزال أمامي على الطّاولة . نظرت اليها دونما اكتراث . . . لم تعد لي رغبة في تناول شيء . . تقلّصت شهيتي ، تمخّط أحدهم في ركن ما من المقهى ، يد شاحبة معروقة امتدّت نحوي :

ـ الله يسهّل . . !

قلتها دون سابق تفكير . . .

رفع الشّحاذ عينيه المنطفئتين الى السّماء ، تأثرت أنا . . تذكّرت . . .

رحم الله عمر ، السّماء لا تمطر ذهبا ولا فضّة . . . ! !

فكّرت :

ـ لا بدّ من تفتيت الصّخر ، من شقّ القنوات ، من مدّ الطّرق المؤديّة الى الحقول الخضراء والمسيّجة بالأسلاك

الشـائكة . . . انتبهت ، دلّيت يـدي ، لم أجـد في جيب معطفي ما أتصدّق به . . !

شرخت طبلة أذني قرقرة مراسل الاذاعة المركزية :

ـ هنا ملعب الفتح . . . الأخ الزوين يحدّثكم :

ـ برافوا . . ! برافوا . . ! القذفة رائعة . . . في غاية الـرّوعـة ، الاّ أنّها لم تـكن في الـوقـت المنـاسـب . . (دوماج . !) الكرة تصـطدم بخشبة المـرمى . . . الحارس مبروك في منتهى الذّكاء . . . لقد أنقذ الشرف . . .

(تصفيق عاصف . . .) !!! .

أخـرجت من جيب معطفي قـطعة نقـدية يتيمـة . . مفضّضـة اللّون . . (أقصد ليست فضيـة . .)، تنـاولهـا النّادل في لباقة ذكية ، ابتسم في وجهي ، ما أسمجه . . ! لـو عبس لكـان أفضـل ، كـدت ألاّ أفهم ، مـا أشـدّ غبائي . . !

قاتل الله الأغبياء والمعتوهين ، وأنصاف الأكذياء . . (قلت في نفسي . .) ، شعـرت بـالغثيـان ، انتـابني الـدوار . . نبت القيء في أعمـاقي ، تسلّق الى حـلقي تـواجد بكثـافة ، اكتظّ . . . هـرولت ، كدت أختنق . .

أنفجر . . . أتساقط ، احتواني الشّارع . . حملقت في الوجوه النّاصلة الألوان ، مرّة أخرى ، بصقت على الأرض سائلا حالك السّواد . . . !!

علامات استفهام مقلوبة :

صرخت دون وعي :

ـ وجدتها . . . وجدتها . . . وجدتها . . . !

لكنّ الصّرخة تدلّت مشنوقة داخل حلقي ، تجمّدت ، ماتت الكلمات فوق تضاريس لساني . كان ينقصني ذكاء (أرخميدس) ، بل تنقصني شجاعته ، وهو ينطلق عريان الجسد كما ولدته أمّه وسط المدينة . . الشّارع . . . النّاس . . ويردّد :

ـ يوريكا . . يوريكا . . . يوريكا . . . .

أيّ شيء أروع من هذه الحقيقة . . أن تنطلق عريان الجسم بين الناس . . ؟! لا أعتقد . . فالحقيقة جارحة ومرعبة . لهذا سوف أحتفظ بها لنفسي ، ولن أتعرّى . . . لقد وجدتها أنا أيضاً ، وجدتها ما في ذلك شكّ . . . الاّ أنّ الشّجاعة الكافية لاعلانها في المدينة . . الشّارع . . النّاس لا أتوفّر عليها لحدّ الآن . لأنّي كنت وما زلت

جبانا . . . الجبن وصمة الانسان المعاصر . . . انّه العملة الوحيدة التي يتعامل بها ، وعلى جميع المستويات . . . واذا كان هناك من يرفض هذا الاتّهام ،فليتدلى في أغوار ذاته ، ولينبش أسرارها . بعدئذ أنا في انتظاره . . فليرجمني بحجر . . !

أما أنا ، فأعلنها صراحة . . لم أستطع أن أتعرّى تحت أشعّة الشّمس التي كانت آنذاك في سرّة السّماء قاسية شرسة ، تجلد كثافة الرّؤوس المجوّفة الفارغة التي اتخمت الشّارع وأصابته بالكظّة دون ما جدوى . . !

أشجار الكالبتوس الماحلة الألوان ، تمتدّ على جانبي الشّارع الصّاعد الهابط مهدّلة الأغصان ، قاتمة اللّحاء . . والوجوه كلّ الوجوه ، غائرة العيون ، منسحقة السّحن ، ترابية الألوان ، وقيظ الظهيرة لا يطاق . . . !

أحسست بصعوبة التّنفّس ، سياط من لهيب تجلد الرّؤوس الفارغة المجوّفة ، والخاوية الاّ من فكرة التّدخين في شره مستديم . . . !

تحرّكات عنكبوتية بليدة صدرت عنّي . تسلّقت وأنا في الزّحام ـ نتوءات الوجوه ، للمرّة المئة . . وربّما للمرّة

الألف ، زجرني بعضهم بنظرة قاسية ، غضضت الطّرف في استحياء . وفي غفلة منّي ، رفع الرّجل يده اليمنى ، تحسس بها أنفه في حذر ، لم يلحظه أحد غيري . تمنّيت لو لم يحدث هذا . . . استدار الرّجل ، قصدني فجأة ، ارتعبت . . . لكنّه مدّ يده نحوي ، صافحني في ودّ ، ابتسم في طيبوبة واضحة ، ثمّ طفق يقدّم لي عبارات الشّكر والامتنان . . . :

ـ لم أنتبه ـ قال ـ الحقيقة أنّي مصاب ـ وقاك الله وحفظك ـ بزكام حادّ ، لقد انسدّ انفي بالمخاط منذ الصّيف الماضي . حساسيتي مفرطة ، أنت تعرف أمراض الصّيف هذه الأيام ، لقد أصبحت كلّها موبؤة ، وأصبح كلّ النّاس مفرطي الحساسية ، لعن الله الأوبئة المنتشرة في فصل الصّيف . . ! قابليتي غير مهيّأة لاستقبال مزيد من التّشنّجات الطّقسية ، رغم أنّي أتتبّع النّشرة الجوية باهتمام مبالغ فيه وأعمل لها أكثر من عملية حساب . . . !

صمت الرّجل الغامض المجهول برهة ، ريثما استجمع أنفاسه اللاّهثة المبدّدة ، ثمّ استأنف محاضرته الثقيلة السّمجة . . !

ـ وكما ترى . . ورغم كلّ احتياطاتي للموقف ، الحالة . . فقد تضخّم أنفيٌ بشكل ملحوظ ، لدرجة أنّي فقدت حاسّة الشمّ . . وعجزت عن كبح السّيلان ، وحتّى أقراص الاسبرين لم يعد لها أيّ تأثير أو مفعول ، ما عدا القرحة المعدية التي أصبت بها مؤخراً من جرّاء ادماني على الكبت والتّصبّر . . . !

تلعثمت أنا ، أسقط في يدي ، زرع هو نظرات قلقة في اتّجاهات متباينة متداخلة ، وأكمل فيما يشبه الهمس :

ـ الأنفلوانزا . . . انّها أنفلوانزا مزمنة ، وقاك الله شرّ أرياحها القاتلة ، يقولون انّها جدّ خطيرة ، وسعيد هو ذلك الذي سينجو من حميّاها اللاّهبة . . !

ولّما لم أفهم ، وربّما قصدت الاّ أفهم . . أضاف الرّجل في خفوت :

ـ كلّ النّاس هنا ، ـ أقصد في مدينتنا ـ مصابون بالزّكام الحادّ ، أنت الآخر ـ وأشار الى أنفي ـ مصابٌ به ولا تدري ! رحم الله حاسّة الشّم ، فقدناها من طول ما عانت أنوفنا انسداد الخياشم . . !

وعلى كلّ ، فأنا أشكرك على ملاحظاتك القيّمة

والدّقيقة ، لكنّي أنصحك بعدم التّصريح بها . . . ولو عن طريق التّلميح . . لا تعد مرّة أخرى الى التّحديق في وجوه الآخرين . . .

قال هذا في لهوجة ، ثمّ خشّب ظهره في وجهي ، وتابع خطوات قلقة حائرة هي أقرب الى الهرولة منها الى المشي السّويّ المطمئنّ .

ودون ما شعور أو رغبة منّي ، سرت أنا الآخر ، فيما يشبه الهرولة ، والضجيج يحتدّ ، يتفاقم ، يكاد يتفجّر في دماغي . . أعدت التّحديق في الوجوه ، كلّ الوجوه ، لأتأكّد من أنّها فعلا ، مصابة بانسداد الخياشم ، بالأنفلونزا المزمنة . فبدت لي غريبة حقّاً .

كيف أنّي لم أنتبه لهذه الظّاهرة قبل الآن . . ؟؟

غريب . . . ! كلّ الوجوه تحمل بين عيونها المنطفئة البريق علامات استفهام مقلوبة الى أعلى . . (. . . .) .

حدّقت في بعضها ، صلبت أهدابي ، انتابني الدّوار من جديد ، نبت القيء في أمعائي ، حاولت أن أتخلّص من الغازات . . من شهوة التّقيّوء . . . تذكّرت أنّي لم أتغدّ هذا اليوم . . !

فكّرت أنّ وقت الغداء قد مرّ ، لقد تسكّعت طويلا ما في ذلك شكّ . . هرولت مسرعا الى البيت . . الجوع خفّاش ضاري الأظفار شره الأنياب (كالفأر تماما . .)، ينهش في ضراوة لحم امعائي . . يمزّقه . . يمتصّه . . !

تحسّست أرنبة أنفي في حركة آلية :

ماذا . . ؟؟ أهنا أيضاً علامة استفهام مقلوبة؟؟!!

وتنهّدت ، مرّ في ذاكرتي شبح الرجل اللّغـز ، كدت أتقيّأ من محاضرته الطّويلة الثّقيلة والسمجة للمرّة العاشرة تتابعت أمام عيني سحن آدمية متعدّدة ومتباينة . . لاحظت أنها ـ دون استثنـاء ـ تحمل عـلامات استفهـام مقلوبة الى أعلى (. . . . .)، هانت عـليّ المصيبة ، ليس في الأمـر ما يثير. . أو ما يحزن على ما أعتقد. . . .

كلّ الوجوه بها علامات استفهام مثل التي في وجهي ، فعلى ما الحسرة والتّأسّف؟؟! . .

عرّش في أعماقي هدوء مباغت. . !

للمـرة الثّـالثـة ، ربّمـا الـرابعـة ، أو الخـامسـة ، لم أكتـرث ، لست أدري ؟ ذاكـرتي لا تقـوى عـلى حـلّ

الكلمات المتقاطعة . . لم يحدث قط أني أنجزت مربّعا من هـذا النّوع . . ! فـأحرى أن أنجـز ـ أو أفكّ ـ مثـل هذه المتواليات الطقسيّة اللاّمتناهية . . !! .

تضخّم الجثّة :

بـدا لي وأنا في طـريق العودة الى منـزلي ، أنّ سكّان المـدينة المجـدورة الوجـه قد ألفـوا رمدهـم ، وزكـامهم ، وانسداد خياشمهم . وحتّى منظر الجثّة الهـائلة والمنطرحـة وسط الشارع الرئيسي للمدينة الكئيبة المزكومة، يبدو أنهم ألفـوه . . لست أدري كيف تدجنـوا بهـذه السهـولـة المفرطة . . ؟!

كانوا يفـدون اليها من شتّى المنـاحي والأصقاع ، ثمّ هم لا يلبثـون قليلا حتّى ينصـرفوا الى مشـاغلهم المعيشية الملحّة غير عابئين ولا مكترثين ، لكـأنّما بعضهم أو جلّهم استمرأ النّظر اليها ، التذّ التّحديث في بروزاتها ، وزيّنت له نفسه التّسلّي بمرآها البشع . . .

بيد أنه رغم ذلك ، لم يجسر أيّ واحد على الاقتراب من جثّة « الجثّة »، أو لمسهـا حتّى بعود . لم يكن بهـا نتن بعد ، ورغم ذلك ، لم يدن منها أحد لحدّ الآن ، لكأنّما لا

يهمّهم أمرها بتاتا ، أو لكأنّما هم متيقّنون من عدم التّعرّف عليهـا . . . ربّما لجهلهم أمـرهـا . . وربّمـا اشفـاقـا عـلى نفوسهم حتّى لا يزجّوا بها في متاهة التّحقيق . . يبدو أنّهم يوثرون السّلامة والعيش في السّتر . . . !

ما لهم وللجثّة . . ؟؟ الى الجحيم بكلّ الجثث . . . !

وربّما هم تجنّبوا امكانية التّعرّف على الجثّـة ، كون رجـال المبـاحث لم يجدوا ـ أثنـاء تفتيشهم ـ في جيـوب معـطفهـا الأسـود اللّون ، الفضفاض الأردان أوراقـا رسميّـة تثبت الهوية ، وتحدّد دائرة الانتماء . . . زد على هذا ، أنّ الجاني كان حاذقا ، وذكيا [مئـة في المئة]، بحيث أنّـه رتّب كل شيء بمهارة فائقة ولم يخلّف وراءه أثناء ارتكابه للجريمة ـ ما يكشف عن شخصيته الفذّة أو يهدي اليها مهما جدّ رجال المباحث في محاولة الكشف عنها . . . حتّى البصمات التي يمكن أن تـوضـح حقيقـة ارتكـاب الجـريمـة ، تعب الاخصـائيّون في البحث عنهـا ، ولم يعثـروا لهـا عـلى أثر . . . ! !

وبناء على ما ذكر ، تـوقّفت التّحقيقات، وان شئت قـل التحرّيات عند هـذا الحد، وعـاد المخبرون بخفي حنين ، وظلّت النّتائج سلبية الى ما بعد زمن الظّهيرة ، ممّا

أدّى الى مضاعفات خطيرة . . !

أخذت الجثّة في الانتفاخ ، ثمّ بدا أنّها تتضخّم بشكل مثير ، وشيئا فشيئا ، انتشرت رائحة اختمار الغازات ، وهاجمت النّتانة كلّ الأدمغة ، حتّى تلك التي كانت تحتمي بجماجم جدّ سميكة ، لم تنج من التّلوّث ، والأدهى من كلّ هذا ، أنّه لم يعد في الامكان استنشاق دفقة هواء نقية ، خالية من نتانة التّفسّخ الذي شمل الجثّة الهائلة في سرعة مذهلة . . !

اقترح بعض الأذكياء ، ترك الجثّة في مكانها ، لتعمل فيها عوامل الزّمن ما تشاء ، فهي لا تبدّد بأدنى خطر ، خصوصا وأنّ النّاس ألفوا منظرها . . . واستمرأوا رائحتها . . . !

احتجّ احدهم :

بل ينبغي أن تحمل الجثّة الى المقبرة . . أن توارى التّراب ، وهذا أضعف الايمان . . . حتّى نأمن شرّها ، وتأمن المدينة شرّ الأوبئة الفتّاكة . . !

وبعد صخب وجدال عنيفين ، أشرفت وجهات النّظر على التّلاقي . . . الاّ أنّهم ما لبثوا أن اختلفوا :

ـ في أيّ مقبرة يستحسن أن توارى الجثّة؟!.

ـ أفي مقبرة اسلامية..؟ أم في مقبرة مسيحية؟؟!..

واحتدّ النّقاش، وتفاقم الاشكال، وبرزت للقضية رؤوس أخرى، وذيول ـ أو مضاعفات عديدة ـ بينما صرخ أحد الضّائعين من بين أمواج الزّحام الخانق:

ـ القضية أيّها السّادة، أخطر ممّا تتصوّرون...!

فسواء وارينا الجثّة في مقبرة مسيحية، أو مقبرة اسلامية، الأمر لا يغيّر شيئا من حقيقة الوضع، ولن تحلّ المشكلة. بمجرّد دفن الجثّة...!

لا تحاولوا دسّ الرّؤوس في الرّمال... لقد فات الأوان.. ينبغي أن تعترفوا بالأمر الواقع، بما هو كائن.. ثمّ فكّروا فيما يجب أن يكون...

الحقيقة التي لا مجال للشك فيها، أنّ الجثّة ظاهرة فزيقية، بل واقعة قابلة للمعاينة والدّرس.. وفي امكان النّاس.. كلّ النّاس، بل والعاديّين منهم جدّا، أن يتعرّفوا عليها، وعلى مرتكب جريمة قتلها [أو بتعبير أفصح]: تعريّتها.! قد تسألون الآن:

من هو مرتكب هذه الفعلة البشعة . . ؟؟!

وأنا أجيبكم بكلّ بساطة وهدوء بال :

ـ لعلّه الآن بيننا ، يتفرج على رقصنا المضحك . . !
قد يكون . . وقد لا يكون . . . انّما الذي يجب أن نهتمّ به كمبادرة أخيرة أن نحيط الجثّة بما يلزم من حذر واحتياط . . حتّى لا تنتشر الأوبئة ، ويعمّ الفساد أرجاء المدينة . . !

ـ لقد تعفّنت الجثّة، تناسلت في لحمها الهاري جحافل الدّيدان . . وقد تظهر الأعراض اليوم أو غدا . . وربّما بعد غد على أبعد تقدير ، بل قد تظهر اللحظة، ان لم تتّخذ فورا كلّ الاجراءات الحازمة واللازمة . . . وفي هذا الطّامّة الكبرى ، لا بدّ من اجتماع « قمة » ، واذاعة تقرير على الفور مدعّم بالإحصاءات الدّقيقة واللاّزمة عن صحّة السّكّان . . . !!

التّقرير رقم واحد :

زرعت عيني في السّماء ، فعل مثلي كثير من الخلق . .
أصوات مرتعبة، مستنكرة، مغمغمة، متداخلة :

ـ انظروا .. انظروا... ياه... ه.. ه.. ه.. ه!!

واذا بنا نحدّق كلّنا حيث أشارت الأصابع .. بعجت عيوننا المنطفئة متاهات الفضاء ، كانت السّماء قد أمست غائمة ... غائمة ، وكانت أسراب الغربان النّاعبة تغطّي وجه الشّمس ، تملأ عرض الفضاء ، تلقي على المدينة ظلا قاتما ، تنقبض له الصّدور ... !

حينئذ بدأ القوم يتسلّلون في صمت مقرف ، يذوبون في المداخل والأقبية ، كما تذوب « طوبات » الطّين في المستنقعات العطنة ، تبتلعهم الأزقّة والمنعطفات ، تغيّبهم في مداخلها وظلالها ، دون أن تحدث أحذيتهم أدنى ارتطام على اسفلت الرّصيف القذر .

تحرّكت أنا من مكاني الذي كنت واقفا فيه في تباطوء ثقيل ، كنت كالمسطول تماما ، لا أكاد أصدّق ما أرى... ما أسمع... ربّما خمّن بعضهم أنّي أصبت بفقد الذّاكرة .. ليس بعيدا أن يحدث مثل هذا، في زمن كهذا ، يخرج الرّجل من داره ، ثمّ لا يعود اليها ..

وعندما يتساءل الناس عن سبب اختفاءه. . ؟؟؟ لا يملكون جواباً . . !

انهم يجهلون سبب اختفاء الأشخاص . . فلا معنى لطرح الأسئلة البليدة بهذا الشّكل المضحك. . ! هم باتوا مقتنعين فقط أنّ الواحد منهم يمكن أن يختفي في أية لحظة . . . انّه أقل ما يمكن أن يرد على الذّهن في مثل هذه الأيام ، وفي مثل هذا الزّمان ، وفي مثل هذه المدينة. . !!

صرت أجمع شتات أفكاري بمنتهى الصّعوبة . حاولت أن أتذكّر :

— متى خرجت من منزلي. . ؟؟ ولمه. . ؟؟!

وأيّ الطّرق أقصر وأضمن للوصول الى أهلي. . ؟؟!

عجبا ، دماغي أمسى مجوفا من الدّاخل . فقدت القدرة على التّركيز . . التّمييز . . . لم تعد لي رغبة ما . . رغبة التّحديق في وجوه الآخرين ، هي الأخرى ، فارقتني الى غير رجعة . . أمسيت أخاف على نفسي : !

لست أدري ما الذي حدث. . ؟؟!
ماذا أصاب النّاس في هذه الأيام. . ؟؟!

ازدادت الـوجوه ـ وهي منكفئـة في التّـراب ـ جمـودا وقتـامـة ، عـلامـات الاستفهـام المقلوبـة : (. . . . .)، برزت ـ رغم أنّي حاولت أن أتحاشى النّظر اليهـا ـ بشكل «لافتٍ» للنّظر بين عيون مجوّفـة منطفئـة تمامـا ، كعيون القطط المختنقة غرقا في المجاري السرّية . . . !

وخيّـل اليّ أنّ في كلّ عـين ، وعنـد كـلّ بـاب ، أو مـدخل ، أو عـطفة زقـاق ، ثمّة جثّـة هائلة متفسّخـة ، تتنـاسل الـدّيـدان في أغـوار لحمهـا الهـاري ، تتـوالـد ، تتراكم ، تزحف ، تتدفّق تماما كقيىء المراحيض في بعض المـواسم الشّتـويـة الصّعبـة ، تلتهم كـلّ العيـون ، كـلّ الأنوف ، كلّ الألسنة ، تلغّ بشراهة في الأدمغة المـطحلبة الفـارغة . . تسـدّ كلّ الأبـواب . . النّوافـذ . . المداخـل، الأزقّة . . الطّرقات . . . تعترض الأجسام الهزيلة المتوارية في الظّل البارد . . الهاربة من نور الشّمس الغامر ما حولها من جمادات وأحياء . . تشنق الصّـرخات . . الاستغـاثات التي لا أصـداء لهـا . الاّ في لهـوات الحـلاقم، تخنق النّـداءات . . الصّلوات التي لا حـرارة فيهـا في أقبيـة الحنـاجر، تميت الكلمـات التي لا عصب بها ينقـل نبض القلوب . . حرارتها . . أحـلامها وآمـالها . . . تميتهـا . .

تسحقها بين تضاريس الألسن والشّفاه. . . !

صفعتني زوجتي بسؤالها الأبله السّاحر، وأنا لم أتخطّ بعد عتبة الباب:

ـ الحمد لله. . . ! وسبحان الله. . ! ها أنت ذا قد عدت!!! أين غُرت سحابة النّهار يا رجل. . ؟!

ـ . . . .

ـ مالك لا تردّ. . ؟؟! لقد تخوّفنا على حياتك، قلوبنا بلغت أسطح الحناجر. . !

ـ . . . .

ـ كدنا نرفع الأمر للبوليس وأنت خالي البال، تتسكّع في الشوارع والأزقّة من مقهى الى مقهى. . . هيه. ؟؟ ماذا قلت؟؟!.

نظرت اليها في عته، لم أنبس ببنت شفة. . . عادت تثرثر، لست أدري ماذا كانت تقول. . ؟؟ لم أعرها أيّ اهتمام. . الاّ عندما لمحتها تكفّ عن الثّرثرة دون سابق نيّة. . تيبّست فجأة. . تخشّبت. .

ـ ماذا حدث للمرأة. . ؟؟!

من زاوية ما في المنزل الذي أكتريه منذ عشر سنوات

تقريبا ،ـ أقصد منذ حصولي على الـوظيفة ـ انبثق صـوت المـذياع يعلن البيـان ـ أو التّقريـر ـ رقم واحد عن صحّـة السّكّان ، وطقس المدينة بصفة عامّة . . !

قال المذيع ـ وهو يحاول جاهدا اضفاء صبغة الجدّيـة والمشروعية على كلامه :

ـ « المدينة . . . كلّ المدينة ، هادئة تماما ، خلافاً لما قـد أشـاع بعض المشـاغبـين المهـرّجين من الإذاعـات المجـاورة . النّـاس يختلفـون الى شؤونهم كـالعـادة . . . والأمور تجري على البديهة . هناك فقط ـ وهذا ليس بذي أهمية مطلقا ـ بعض الاصابـات الطّفيفـة والخفيفة ، نقـل المصابون اثرها ـ وعلى الفور ـ في سيارة الاسعاف لأقـرب مركز ـ أقصد أقرب مستوصف خاص بالمستعجلات . . !

هذا ، وقد اتّخذ مجلس المحافظة على الصّحة العامّـة للسّكّان والبيئة الطّبيعية للمدينة كـلّ الاجراءات الـلاّزمة والعـاجلة لحصر اصـابـات التّلوّث في نـطاق ضيّق وجـدّ محدود . . !

صرخت من الأعماق ، وفي توتّر شديد :

ـ أوقفوا . . أخنقوا . . أكتموا صوته وان استعصى

فاكسروه ، لا أريد أن أسمع شيئا . . . لا أرغب في شيء . . !

قالت زوجتي :

ـ ما معنى كلّ هذا ؟ . . أنا لم أفهم شيئا . . !

قلت لها ، وكأنّ الكلام غير موجّه اليها ممّا زادها حيرة على حيرة :

كفانا تهريجا ، كفانا مسخا وتشويها ، كفانا سفسطة وديماغوجية . . . لقد نبت القيء . . اكتظّ في حلوقنا . . ولم نعد نحتمل . . !!

ـ . . . .

ـ ما بالك تنظرين اليّ هكذا ؟ . . تصوّري أنّهم يكذبون ، ما أسخف كذب الكبار . . وما أسمجه . . !

ـ . . . .

لقد رأيت الجثّة هذا اليوم . . ! منذ الصّباح الباكر والى وقتنا هذا، (كان الوقت عصرا . .) والنّاس يتفرّجون عليها . . والغربان تحوم حولها . . . لقد رأيتها بأمّ عيني ، (رأيت الجثة) ، رائحتها أزكمت كلّ الأنوف . . . زرعت

القيء في كلّ الصّدور، لقد رأيناها جميعا، وسمعنا الكلّ يتبرّأ منها. . !

كلّ النّاس تبرّأوا من الجريمة ، لقد سجّلت التّهمة ضدّ مجهول. . !

مجهول. . ! تصوّري ، انّهم يتبرأون من جريمة كلّهم شاركوا في اقترافها ، وفي واضحة النّهار. . !

هل يعقل هذا. . ؟؟ هل تصدّقين. . ؟؟
ألا ما أشدّ تعاسة سكّان هذه المدينة . . !
يبدو أنّهم لم يسأموا التّعامل فيما بينهم بهذه القطع النّقدية المزيّفة . . !

انّ لونها مفضّض حقّا ، ولكنّها ليست من الفضّة في شيء . . ! ومع ذلك هم يتعاملون بها . . .

لماذا . . ؟؟ لماذا . ؟؟ لماذا . . ؟؟!

كنت أهذي ، كنت أصرخ ، أتشنّج ، أبصق . . وربّما حاولت أن أتقيّأ . . !

ـ هل هي حالة « كولرا . . »ـ سألت زوجتي؟؟!!

ـ . . . .

لم أجبها . . أغرقت في الصّمت ، كان البيان قد أذيع . . أعقبته موسيقى فولكلورية سمجة : (نقرات على الدّفوف ، ثقيلة رتيبة مملّة . . .) .

ـ ما زالت الآذان في هذه المدينة طرشاء (قلت في نفسي) ! ما زال النّاس يعيشون على الفطرة . . طوبى لهم . . ! !

تحرّكت . . تحرّكت زوجتي . .

نهضت ـ أنا ـ من على الكرسيّ الخشبيّ الأعرج الذي لم يعد صالحا للاستعمال منذ زمان . . . قصدت غرفة المكتبة ـ عفواً ـ حيث تتراكم بعض كتبي وأوراقي . . . !

وفجأة ترامى الى سمعي صرير مزلاج الباب الخارجي وهو يغلق باحكام . . . ابتسمت في أعماقي :

ـ ما أغباك حقّا يا زوجتي . . . ! !

تسدّين الباب في وجه (الكولرا . .)، وفي مدينة موبوءة حتّى النّخاع . . . نكتة سمجة . . أليس كذلك . . ؟؟!!

1973 / 9 / 2

الكوريدا وأطفال قرطبة



الثور يتحدى

أسود ، أفحم ، فاقع لونه ، تنزلق العين عن متنه ، مثل لون المسك تحسبه ، بل تظنه ، المسك ذاته ، تدعك عينيك ، تنظر اليه ، يصدمك ، يرعبك ، يقشعر جلدك ، عظمك ، شعر رأسك ، تشفق من جبنك أن يرتسم على وجهك . . سحنتك ، فيشمت بك الآخرون . أنت تبغض نظرات المقت والاستهزاء ، كلمات الغمز واللمز ، تكره أن يلصقوا بك وصمة الجبن ، أن يتهامسوا خلف أذنيك ، وربما زعقوا في وجهك :

ـ جبان . . جبان . . جبان . !!!

ينتابك الخجل . . ينزّ العرق من جبينك الحشري اللون ، الهلامي القسمات تمسح بعينيك الحذرتين

المنطفئتين عشرات ، مئات ، بل آلاف الوجوه المحيطة بك تبحث عن صدى ما ، ولو ضئيل لأفكارك . . لوساوسك . . لأوهامك ، بيد أنك تدرك ، وعلى الفور ، ان هذه الوجوه الباهتة الصفراء التي تحيط بك ، تلتف حولك ، تتخم جنبات ملعب « الكوريدا » لحد القرف ، رديئة الاستجابة ، لا تعكس من الأفكار والأحاسيس ، الأشياء . . الاّ الظلال والأشياء ، تركة البلاهة والغباء مرتسمة على ملامحها بكل وضوح ودقة . ترتاح لنتائج الكشف الذكي ، انها فعلا لم تر ، لم تلحظ ، لم تقرأ ، لم تفهم ، لم تعكس ما نبت في زوايا قلبك ، ما ارتسم في ظلام عينيك ، ما توشم على ملامح وجهك ، بالسهولة المجانية التي كنت تتصورها تفكر فيها ، تجسدها لدرجة الهذيان ، تتوجس من أشباحها . . خناجرها . . أنيابها لدرجة الرعب . . انك في منجاة من هذه الأشباح . . الأوهام كلها ، لن تبقر بطنك ، لن تطعن ظهرك ، أو تشرب من دمك ، لن يحدث شيء من هذا البتة ، بل كل الذي كنت تفكر فيه ، تتوجس من نابه أو أنفه ، لم يشعر ، لم يعبأ ، لم يأبه بوجودك بالمرة . . يعاودك الشعور بالارتياح . . الطمأنينة . . تتأكد من ذلك بسرعة . . تركز بؤبؤ عينيك . . تصلب أهدابك . . أحداقك . . تنظر

الى الثـور ، ثـانيـة ، وثـالثـة ، ورابعة . . . تتـداخـل الأشكـال ، الحـدود ، الأبعـاد في عينيـك ، تنـدغم الألـوان . . الأصوات ، الـروائـح في حسـك . . تنـزلق عينـاك على متنـه ، تعاودك القشعـريرة . . الصـدمـة . . تتفاقم مخاوفك هذه المـرة ، ترهب أن يـطأ بطنـك الغض المترهل بأظلافه الصلبة الحـادة ، أن يبقر معـدتك بقـرنيه المتحفزين المنتصبين في شبق جنوني ، تلاحظ أنّ قـرنيه في غاية الصلابة . . الحدة . . الشراسة ، ترهب أن تخزك ، أن تبعجـك ، أن تدخـل فيـك ، تنتـابـك الـدوخـة . . الاغماءة ، يروعك المنظر المهول ، تطل . . تندلق . . تبدأ أمعـاؤك في الانـدلاق والتسـرب خـارج الكيس الجلدي المبقـور . . المهتوك خـارج جوفـك ، يتدفق الـدم الأسود المتخثر خارج الشـرايين والأوردة ، خـارج الجسد الهـامد الميت ، ينسكب . . يهـطل . . يسيل بغـزارة الأمـطار ، يكون بقعة . . بركة . . بحيرة . . بحرا . . محيطا ، تملأ عينيـك الوان حمـراء . . حمراء ، تتـداخـل الأشكـال . . الحـدود . . الأبـعـاد . . التـضـاريس في حسـك . . وعيك . . عقلك ، تفقد القدرة على الادراك ، التمييز ، تشعـر بالـدوار ، تهرش رأسـك ، تهـزه في عنف ، تلعن الأوهـام ، الـرعب ، الجبن ، لكنـك ، رغم ذلـك ،

تحـاول . . تشرع في الاختبـاء داخـل جلدك ، جلدك لا يتســع لكـل جبنــك وعفنــك ، وبــلادتــك ، جلدك يـرفضك . . أنت تشعـر بهذا ، تـدركه ، تتـأكـد منـه ، يكتسحــك الصَّغـار ، الهــوان ، الـذلــة . . تنكمش ، تتضـاءل ، تتـلاشى ، تشفق عـلى نفسـك أن تنمـاث ، تـذوب ، تتحـول الى بـركـة عـطنـة ، تعـاود النـظر . . التحديق . . في توجس ورهبة ، تركز أكثر ، تمتلىء عيناك بضخامة الثور ، تعجز عن احتوائه ، استيعاب حدوده . . أطـرافه من جـديد ، تنغـرز الوانـه البـراقـة الـلامعـة في عينيـك ، في مخك ، الثـور أسود أفحم ، أملس ، فـاقع لونه ، تنزلق العين عن متنه ، يعزق الأرض ، التـراب ، الحصى ، الأعشاب بقائمتيه الأماميتين ، يغلي ، يرتعد ، يتميز غيظا وغضبا ، يثير الغبار ، يمتلىء الفضاء بالنقـع ، رغوة . . فقاقيع مثل الزبد ، بيضاء ، متلألئة ، تتطاير من خطمه ، من فتحتي عرنينه ، من غور أشداقه ، تتطاير ، تنهل ندفا . . ندفا ، كأنها الثلج المتهافت ، أنت ترهب أن يـواجهك الثـور . . أن يتحداك ، ان ينـظر اليك بعينيـه الكبيرتين القانيتين الوحشيتين ، تغض من طرفك ، لكأنما قــذى بعينيـك ، يــدبـر الثــور فجـأة ، بهيكله الضخم

المتماسك الألواح ، المكتنز الأطراف ، الهستيري الحركات . . الحمحمات . . تنفرج أزمتك ، مثل الحجر الصلد ينزاح عن صدرك ، « يوضع عنك وزرك »، يفرخ روعك ، تتعملق ، تتواقح ، تمسح بعينيك الحذرتين المشدوهتين ، مؤخرته الضخمة ، تمتلىء اعجابا ، رهبة ، شهوة ، تراودك رغبة ما ، تحس دغدغة الجوع في أمعائك ، احساسك دائما صادق ، تتوهم هذا ، تؤكده لنفسك ، تتذكر أنك في حاجة الى اشباع غريزة ما ، تمر في مخيلتك صحاف من فضة ، ملوكية النقش ، زينت برسوم موشومة بالوان زاهية متداخلة ، رصت حتى الحافة بقطع « البفتيك » الطرية المحمرة ، لعلها متبلة بما فيه الكفاية ، هذا أفضل وأمتع ، أنت تكره شرائح اللحم بغير توابل ، يتحلب ريقك ، تمتلىء أشداقك بمادة لزجة ، تزغرد عصافير بطنك ، تشعر بحتمية التلمظ ، تكاد أن تفعل ، تتوقف عن الفعل ، تكتظ بالرعب ، بالارتجاف ، بالخواء حتى سطح بلعومك ، ينضب ريقك ، ينشف حلقك ، تتشقق لهاتك ، ينزرع القحط في حنجرتك ، تتحطب أطراف لسانك ، تتخشب ، اذ يفاجأك الثور بنظرات جمرية متقدة ، تتخيل أنه سمع صهيل شهوتك الجشعة ،

فانبرى يطالبك بفاتورة الحساب ، يأمـرك ؛ يستحثك أن تؤدي ثمنـا مشرفـا ـ على الأقـل ـ ما دمت قـد تلذذت ، ازدردت شـرائـح لحم طـريـة محمـرة متبلة ولـذيـذة ، اقتطعتها ، اجتزأتها بسكينـك اللامـع الحاد من مؤخـرته الضخمـة ، تتعب ، تلهث ، يـدركـك العـطش . . الارهاق ، الغبن ، تلعن خروجـك ، حضورك الى هـذا المكـان الـذي يشبـه البحـر المتمـاوج المتـلاطم ، الـزاخـر بـالنـاس . . الـرغـائب . . الشهـوات . . المكتظ . . الغـاص . . الفـائض بـالعـطن ، القىء ، القـرف . . تتمـالك ، تتمـاسك ، تحـاول اخفاء شهـواتك المكبـوتـة المتحفـزة للوثوب والانقضـاض . . تعمل جـاهـدا ، وفي صمت مـطبق ، على طمس معـالم . . آثـار . . بصمـات الجـريمة ، تقـول لنفسك ، تحـاذر الاّ يتسرب همسـك الى الآخرين :

ـ لو صح ، وجاءت قرائن الاثبات ضدي ـ ثم تبتلع ريقـك ـ النـاشف قبـل أن تستـأنف ـ لنفيت التهمـة عن نفسي ، وبرأت ذمتي أمام هذا الحشد المحشود . . كلهم عـلى براءتي شهـود . . ثم تتذكـر ، يبدو لـك أنّ للقضية وجهـا آخر ، السجعـة قديمـة ، مستهلكـة وممجوجةٌ ، أسلوب المحاكم قد تـطور ، قد تغـير ، ثم من يضمن لي

شهادة الآخرين . . من منهم لا يرغب في الاختباء داخل جلده . . من منهم لا يتحلزن . . لا يحاول اخفاء عقدة الذنب الراسبة في أعماقه . . بل تركة الجبن المنقوشة في تلافيف دماغه . .

صحيح ، كيف غاب كل هذا عن بالي . . ولكن ما بالي أكاد أعتقل نفسي . . أتراني متورط . . مرتكس - حقا - في حمأة هذا الجرم الشنيع . . أولست - أنا نفسي - متأكدا من أني بريء . . واني لم أر أي انسان يرتكب جرما ، كما أن أحداً لم يرني أتناول شرائح لحم محمرة ، متبلة ولذيذة ، اجتزئت من مؤخرة أحد ، حتى ولو كانت من مؤخرة ثور ، صبحوا له القتل في مهرجان حافل من مهرجانات « الكوريدا » . .

قطعا لم يحدث هذا ، ولن يحدث . .

ولكن من يصدق . . - تقول لنفسك همسا - انني بريء من دمك ايها الثور براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وأنني حضرت الى هنا فقط ، كما حضر الآخرون ، لمجرد التفرج والتسلية . فالأمر لا يهمني من قريب أو بعيد ، بل انني لم أفكر مطلقا في تناول شرائح لحم محمر متبل ولذيذ ، وبالذات في صحاف من فضة ، صنعت ، ونقشت ، وزينت خصيصا لحساب أناس

مهمين مميزين بنقاوة أعراقهم ، ذوي قيمة ونفاسة ، ولدوا وملاعق من ذهب أو فضة بـين شفاههم ، أنـا لست من هؤلاء قطعا ، بل انني لا أرغب أن أكون من طينة هؤلاء بالمرة ، ذلك أنهم نخبة ، وشعـوري تجاه النخبـة غامض متداخل ، وفي بعض الأحيـان ، واضح ، وخـطير أدركه تماما ، لكني أتغاضى عنه ، أكبته ، أخاف أن أصـرح به لأحد ، لأني أعرف أن للنخبة حلوقا نهمة لا تستطيـع ان تستغني عن تناول شرائح اللحم المحمرة ، قـد تبتلع ثورا كاملا ، في وجبـة واحدا ، بـل لا يستبعد أن تبتلعني أنـا أيضاً ، اذا ما فتحت فمي ، ونبست ببنت شفة ، أعرف أنه لا شيء يرضي حلوقها النهمة مثل رائحة « البفتيك » الناضجة على نار هادئة متأنية ، لا يهمهم من أين اقتـطع هذا اللحم ، وما الذي يهمهم . . ان اجتزىء من مؤخرة ثور ، أو مؤخرة انسان . . اللحم هو اللحم وكفى . . ثم ان الطباخ الماهر في استطاعته ان يهيىء شرائح لـذيذة من أردأ لحم في «البطوار*» ، وعـلى ذكـر البـطوار ، تتقـزز نفسك ، تتقلص شهيتك ، تتذكر صحفـة القصديـر التي

* بطوار Battoir : خشبة صغيرة يضرب بها الثوب عند غسله . تعني في الأوساط الشعبية المغربية مكان الذبح والسلخ = المجزرة بكل أبعادها .

تتناول فيها طعامك المكون من خليط البطاطس والبصل والطماطم «الديشي*» ، وقلما تحظى معدتك بأكلة شهية كالعدس مثلا . يقولون :ـ ان العدس لحم الفقراء . .

وهذا خطأ جسيم ، وفادح جداً ، في رأي بعضهم ، العدس مساو لشرائح « البفتيك » ، من حيث البروتينات او الكالوريات التي يحتوي عليها ، والتي يمكن أن تسد حاجيات الجسم . .

انها اكبر غلطة ، وأفدح كذبة ما زال الفقراء يعيشون على وهمها ، بعقلية خرافية تماما ، ما زال الجهل بحقائق الأشياء . . الأوضاع . . الواقع . . التاريخ يشل من خطواتهم ، يشدهم الى الوراء ، يكبلهم الى الصخرة . .

مهما يكن ، فاللحم هو اللحم وكفى ، رغم الأفكار السائدة ، ورغم كل المغالطات المعلبة والمعروضة للبيع في مخازن تجار المدينة الفاضلة ، وسماسرة التاريخ المزورين ، فالمعادلة المفروضة ، والمروج لها فاسدة من أساسها ، تتأكد من هذا ، تؤمن به ، بيد أنك لا تستطيع ان تعلن أفكارك ، أن تعبر عن مشاعرك ، أن تتعرى ، أنت ترضى بما ليس منه بد ، بل انك قد عجزت ـ هذه الايام ـ حتى

---

* الديشي Déchet : الفضالة ـ النفاية من كل شيء كالطعام ونحوه .

في الحصول على كيلوغرام واحد من العدس ، لقد أصبح العـدس أيضاً في حـوزة النخبة ، اختفى من الـدكـاكـين بصـورة فجـائيـة ، تجـار الحـوانيت الكبـرى قـالـوا : ان المحصـول هزيـل هذا العـام ، تجار الحـوانيت الصغـرى قالوا : ثمن العدس ارتفع أكثر من اللازم ـ . . وأسقط في يدك ، فقدت آخر مادة غذائية كنت تتعزّى بها ، كانت تسد بعض جوعك ، تحيي بعض خلاياك المنهوكة التالفة ، أنت الآن لا تفكـر حتى في صحفـة « عـدس » مـطبــوخ بعناية ، فكيف تجروء ، تتواقـح ، تمد يـديك المعـروقتين المتشققتين الى مؤخرة ثور ـ كهذا ـ لتجتـزىء منه شـرائح لحم حمراء في غاية الطراوة والنعومة . .

ـ كيف . . . كيف . . ؟؟؟

ـ انا لم أفعل . . لم أفكر في هذا مطلقا . .

وتنتفض في عصبية مبحوحة :

ـ هذا كثير ، كثير أيها السادة . . . أنا حضرت فقط للتفرج ، صدقوني . دفاعك غير مجد ـ يجيبك القـاضي ـ المنطق . . العواطف . . النيات الحسنة والبريئة ، كل هذه الأشيـاء لا تجدي في مثـل هـذه الحـالات . أنت الآن في قفص الاتهـام . . ولا حق لمن كان في مثـل وضعيتك أن يعترض . . يحتج ، يستـأنف ، أو يطلب النقض . تبتلع

ريقك ، حلقك ناشف ، مثل أعـواد القش اليابس صـار لسانك ، أصبع النيابة العامـة يصر عـلى اتهامـك ، يشير اليك ، يحجب عنك رؤ ية انفك لدرجة أنـك تكاد تسلم بالجريمة المنسوبة اليك . لقد زرعوا العقدة في اعماقـك ، أنت تشعر بالذنب اذن ، لمجرد أنك اشتهيت ، فكرت ، تخيلت ، تمنيت ، والقـانـون تـطور ، تعقـد ، أصبـح شاملا ، يقـظا ، متنبئا ، يتـدارك الجريمـة قبل وقـوعها ، يحول دون تنفيذ الأفكار السوداء ، يعـاقب وبضراوة حتى أولئـك الذين يتمنـون ، يتخيلون ، يشتهون ، يكفي أن تشتهي ، أن تفكر ، أن تحلم ، ان تقول :

ـ المعادلة فاسدة من أساسها ، ينبغي أن يعاد النظر في تركيبها ، يكفي أن تقول هذا ، ليلصق على ظهرك رقم معـين ، رقم مـا . . من السلسلة العـدديـة ، لا تحـاول التملص من القانون ، العدالة ، أنت الآن متهم بجـريمة الاشتهاء ، الاشـ. . ، وتمسح جبينك دون سابق نية ، لقد تفصـد العرق منـه بغزارة ، حبـاته البـاردة ، الساخنـة ، المتلألئة تتراقص فوق ارنبة انفك ، بزوايا عينيك ، بزغب خديك ، ذقنـك . شط بك الخيـال ، ابحرت في الـوهم بعيـدا ، كدت تنسى « الكـوريدا »، الثـور ، المصارع ،

الجمهـور ، وكـل الاشيـاء الأخـرى . تعـود الى واقعـك المعيش ، تنظر الى « الخوكادا » ـ اللعبة ـ في لهفة عارمة ، علها تنقذك مما أنت فيه من صعلكـة روحية ، من عهـارة فكرية ، ومن كل التنانين التي تحيط بك ، تتربص لك ، تتحفز للانقضاض عليك ، لالتهامك ، لم يـدر بخلدك ـ قط ـ ان شهوة التفرج ، وربما شبقية الاشتهاء ، قد تمكنت منـك تمامـا كـما فعلت بهؤلاء . . لقـد امتـلأت سـاحـة الكوريدا حتى السفح ، لدرجة انه صعب عليـك أن تميز السحن ، الـوجوه ، العـواطف ، الصـدق ، الكـذب ، وكل الأشياء القبيحة والجميلة ، بل لم يعد يهمك أن تعرف من هم هؤلاء الذين يحيطون بـك ، لأن نفس الشعور ، ربما يخامر الجالسـين عن يمينك ، عن يسـارك ، وراءك ، أمامك . من يدري . . هؤلاء أيضا لا يرغبون في التعرف عليك ، أنت تمسهم مسا خفيفا بأهداب عينيك ، بل أنت لا تكاد تحدق فيهم حتى ترخي أجفانك ، توجسا وخيفة ، وربما رهبة أيضاً . . الا أنك رغم كـل شيء ، كنت ترى تركة البـلاهة والغبـاء مرتسمـة بكل وضـوح على سحنهم المتغضنـة الشـاحبـة ، فتشمئـزّ نفسـك ، تنكمش داخـل جلدك ، تبحث عن موضع ما تحت قدميك ، تقذف بصقة

جافة. تزمُّ شفتيك قرفاً واشمئزازاً، ترفع رأسك الى أعلى في تؤدة وتوجس، تبحث عن قرص الشمس الذي كان قد اختفى - لحظتئذ - بين الغيوم الراكضة نحو الجنوب ، تحاول أن تبحث عن الحقيقة ، رغم كل شيء ، تقلب وجهك في الفضاء ، فيما حولك ، أمامك ، تصدمك عينان وحشيتان ، واسعتان ، تتقدان حنقا وغضبا ، ندف بيضاء لزجة - مثل رغوة الصابون - تتطاير في الهواء ، انها افرازات غضب في ذروة الاحتراق ، ومن قال ان الثيران لا تغضب ، لا تثأر لكرامتها . . تهمس بينك وبين نفسك - ينتابك هاجس شك ، ترغب في أن تتأكد ، ترفع عينيك ، توسعهما ، تركزهما ، يصدمك الثور من جديد ، تتمنى لو أنك لم تفعل ، تشفق من لزوجة الندف البيضاء أن تصيبك ، أن تلتصق بك ، أن تكون ادانة لك ، شهادة اثبات عليك ، تفرق ، ترتعد ، تعاودك الرغبة في الاختباء داخل جلدك ، جلدك لا يتسع لكل جبنك وعفنك وبلادتك ، جلدك يرفضك ، يلعنك ، يجاهد في ان يقذف بك على الرصيف كي يتخلص من عبثية وجودك ، من لا جدواك . تقاوم ، تتشبث ، تتمسك بالحياة الحشرية التي الفتها طوال حياتك ، تزداد مقاومتك ، تنتصر ،

تتضـاءل ، تعتاد التضـاؤ ل ، ينز جلدك السميـك عـرقـا صبيبا ، ملحا ، نتنا ، تبتسم في أعماقك الباردة المظلمة ، مثل بئر مهجورة في العراء ، تلتذ رؤ ية الثور من الخلف ، الثور أسود ، أفحم ، أملس ، فاقع لونه ، تزل العين عن متنه ، يقبل ، يدبر ، يندفع ، يهاجم ، يكسر ، يطارد ، يتحدى ، يتوقف ، يلهث ، يخرج لسانه ، يتطاير الغضب الزبد ، التحدي ، ندفا ، ندفا من لهاته ، من شدقيـه ، من فتحتي عـرنينه ، يعـزق الأرض ، الحصى ، باحـدى قائمتيه الأماميتين ، يثير الغبار ، يرتفع النقع في الفضاء ، في الأعـين ، في وجـه الشمس . انـه أقـوى وأذكى ثـور تشاهده حتى الآن . تقول في نفسك :

ـ لعله من سلالة أنصـاف الآلهة ، تلك المخلوقـات العجيبة الرهيبة التي قرأت عنها في كتب الأساطير القديمة ، في الملاحم الاغريقية ، الأشورية ، البابلية ، بل وحتى في الأساطير العربية . انها كلها مليئة بأخبار هـذه المخلوقات الفوق حيوانية ، ـ السريالية ـ الغامضة المخيفة والممتعة في نفس الوقت . وعلى الفور تتذكر الملحمة العربية القديمة ، ينتصب في شبكية عينيك ثور مجنح رهيب ، تمـاما كـالثور الـــذي يحتــل ميــدان الكـــوريـــدا الآن ، تبــحث عــن

« **قلقميش** »، عن « **أنكيدو** »، عن بطل ما . . مخلص قد ينـزلِ من السماء ، يصعـد من جـوف الأرض ، يتحـدى الثور ، يقهره ، ينتصر عليه ، ترسل عينيك ، ترتدُّ اليك عيناك ، تدرك أن الذي يمكن أن يأتي ، لن يأتي أبداً ، لن ينزل من السماء ، لن تنشق عنه الأرض ، ولن تحبل بـه ارحام امرأة ما دام كل النساء تقريبا مدمنـات على تنـاول اقراص منع الحمل ، وممارسة الجنس في صالونات الحلاقة ومسابح الفنادق من الدرجة الأولى ، كيف تغيب مثل هذه الأشياء عن بالك . لا ينبغي أن تكون أبله لهذه الدرجـة المضحكـة ، فـأنت رغـم كـل شيء ، رغـم الجبـن ، التفـاهـة ، الخـواء ـ قـارىء ذكي ، تعـرف أن زمن الاسـاطـير ، النبـوءات ، المعجـزات قـد ولى ، فـارقت الشعـوب طفولتهـا البريئـة ، وخيالهـا المجنـح السـاذج . **قلقميش** صارع ثورا خرافيا رهيبا وانتصر عليـه بمساعـدة صـديقه انكيـدو ، أما الثـور المكتنز الـرهيب الذي يحتـل ساحة الكوريدا أمامك طولا وعرضا ، فهو ثور حقيقي من لحم ودم ، يتميـز غيظا ، نـارا ، يتحدى كـل الرجـال ، أنصاف الرجال ، وأشباه الرجال ، هؤلاء الذين يمـلأون أدراج ساحة الكـوريدا دون مـا جدوى . حقـا لقد أحيـا

الواقع الاسطورة ـ تقول في همس مبحوح ـ أي غرابة أو شذوذ فيما قرأت ، أو سمعت ، أو رأيت . انه ثور مجنح ضار ، يحتل الميدان ارضا وفضاء ، في زمن باتت فيه الاساطير ضربا من الخيال الطفولي الساذج . تتأكد من هذا ، تتذكر أن الثيران ـ حسب آخر احصائية ـ تناسلت بشكل سرطاني رهيب ، تماما كما تتناسل اناث الثعالب ، والقطط والضفادع ، ساعدها الطقس في « قرطبة » على التكاثر والنماء تماما كما كان يساعدها في مملكة « أور » ، ثيران ، وعجول سمينة جدا ، لحد اثارة الدهشة ، غبية بالوراثة ، صعبة المراس ، لا تسلس قيادها لمروضيها ـ او سائسيها ـ كسائر الثيران المعهودة لدينا ، ورغم كل محاولات الابادة والتقتيل الجماعية التي مورست وتمارس ضدها على شكل هوايات رياضية ممتعة في العاب الكوريدا الحافلة ، لم تستطع محق سلالتها المنتشرة في كل زمان ومكان . انها تتناسل تتكاثر ، تلتذ العيش ، الحياة في سراديب مظلمة ، تزدرد ، العلف ، اللحم ، وتلغ في الدم بشراهة كلبية مسعورة . . . ثم تكبر ، تسمن ، تكتنز ، تصير في ضخامة دبابة فولاذية هائلة . الدبابة مصابة بعمى الألوان ، والثور لا يعرف لا يحب من الألوان سوى الأسود ، يكره اللون الأبيض ، الأخضر ، الأحمر . كيفما

كـان ، واينـما كـان ، في الخـد ، في الـوردة ، في قـطعـة القماش ، في الحقيقة ، في الوهم ، في الخيال ، وفي كـل شيء . . . . الألـوان كلها تؤذيـه ، تؤلمه ، تجلده . امـا اللون الأحمر بالذات ، فهو يحـز في عظمـة رأسه ، ينهش دماغه ، يجتزىء شرائح البفتيك من مؤخرته الضخمـة ، ثم ان كـل هؤلاء الـذين تنـظر اليهم ، تحـدق فيهم ، تتحاماهم ، تتوجس من انيابهم . . انوفهم ، فتاجرهم ، كلهم دون استثنـاء ، حضـروا الى هنـا ، للتلذذ بـرؤ يـة الثور . . . مصرع الثور . انت ـ ايضا ـ تستبد بك هذه الرغبة الآثمة ، تود لو تغرز نابا ، ظفرا ، سهما ، او سيفا في كتف الثور . . وبما انك لا تملك مخلبا ولا رمحا ولا حتى نـابـا ، فـأنت قـد حضـرت كـالآخـرين تمـامـا ، لمجـرد المشاهدة . . مشاهدة الصراع . . اللعبة . . المأساة .

من يستطيع اذن ، ان ينفي عنك تهمة اشتهاء شرائح البفتيك الطريقة الناعمة والمكدسة في مؤخرة الثور بطريقة جد مغرية . . حقا من يستطيع . . .

وتبحث ، تـزرع عينيك في كـل اتجـاه ، تبحث عن قرص الشمس الذائب بين الغيوم ، يصدمك الثور بعينيه الـوحشيتين الـلامعتين . . . تنكمش في سـرعة مـذهلة ،

تقشعر ، تتحلزن ، تتضاءل . . وتنماث كما ينماث الطوب في بركة ماء عطن . .

الثور يزبد ، يرغي ، يصول ويجول في الميدان وحده . من منكم يواجه الثور . . . . ستهمس بينك وبين نفسك وفي تكتم شديد ـ من منكم يتحداه . . . يقهره . . يغمد الرمح ، السيف ، الموت بين اضلاعه . . . من منكم يجندله . . . يضرجه . . يصرعه ، يلون الأرض المجدورة الوجه بنجيعه القاني . . . يخضبها . . يرويها . . يبعث في رحمها اليابس رعشة الخلق ، الولادة . . من منكم . . . من . . . . . من . . .

ـ ترتاب ، تستنكر ، تلعن كل الرجال ، انصاف الرجال . . اشباه الرجال . . . تبثق سرا على نفسك ، لأنك انت ايضا لا تستطيع ان تفعل شيئا ، انت ترهب العينين الوحشيتين ، ترغب ، تلح في الاختباء داخل جلدك . . . جلدك له الحق ، كل الحق ، في ان يرفض ايواءك ، لأنه لا يتسع لجبنك ، لعفنك ، لبلادتك . أنت تكتفي فقط ،ـ ترفع مثل الآخرين عقيرتك ، يديك ـ بالهتاف والتصفيق ، انت لا تختلف عن هؤلاء في شيء ، انت مثلهم تماما ، ان لم تكن اجبنهم اطلاقا ، كلكم

ينتـظر الـذي يـأتي ولا يـأتي . . كلكم ينتـظر ان تنشق « أور » عن البطل المخلص . . . عن «منوليتي سانتشي» أن ينبثق ، أن يتواجد ، ان يحضر اللحظة وبأي ثمن . . . هووحده ـ في اعتقـادكم ـ القادر عـلى مصـارعـة الثـور المحتدم الجموح . . .

منوليتي يناوش الثور

من منكم يجهل منوليتي . . .

منوليتي العظيم ، البطل المغوار ، الذي تقمصته روح أنكيدو ، فتحدى أكبـر ثور ، بـل أعتى وحش في تاريـخ الكوريدا على الاطلاق . . . كلكم يذكر منوليتي . . أعتقد أنكم لن تنسـوه بالسهـولـة التي تتصـورون . . . منـوليتي نسيج وحده بـين الرجـال . . . بين الأبـطال ، يكفي ان تتدلوا في قعر الذاكرة لينتصب أمامكم وجهه . . قامتـه ، شجـاعته ، تضحيتـه ، اقدامـه ، بطولتـه . الذاكـرة قد تشيخ . . تتعب ، تضعف ، ولكنها قطعا لن تنسى ، لن تنسى ابدا . اهالي « قرطبة » الفيحـاء ، يتذكـرون وجهه الأسمر الوسيم ، كان وجهه اسمر فعلا ، وأنفه كان شامخا بما فيه الكفاية ، وكأنما هو ليس من أبناء الثلج والصقيع ، وانما هو من صلب عربي ، تحدرت اليـه ـ عبر الأجيـال ـ

خلاصة الجنس الوافد من قلب الهجير ، هجير الصحراء ، كانت الصحراء في خفقه، بكل عنفوانها، وجبروتها، وكان هو عنيدا ، صلبا ، شهما ، كريما ، بطلا شريفا ، كان حالما جدا ، كل هذا تعرفه انت ، اكثر من أي شخص آخر . . أكيد أنك تعرف عن منوليتي أشياء يجهلها كل الناس ، او اكثرهم على الأقل ، وأكيد ايضا ، انك فكرت - لحظتئذ - ابعد واعمق من أي كان ، بل ربما ، كنت الشخص الوحيد الذي اهتم للأمر ، فكر ، تذكر ، استحضر ، وازن ، خاف ، جبن ، انفعل لحد الرعب . . .

ها عيناك تجولان في جنبات الكوريدا ، كما تجول الديدان بين الحشائش والأتربة العفنة ، انفك يمتد ، ينحشر ، يتسرب يمينا وشمالا ، يستنشق عصير الجوارب والأحذية العطنة ، افكارك ، خيالاتك أحاسيسك ، كلك تبدو موزعا ، مشتتا ، قلقا كريشة في مهب الريح . .

ـ الكوريدا غاصة بالجمهور ، كانت الكوريدا مكتظة ، وكان الزحام شديدا ، انت تلحظ هذا دون كبير عناء ، تتأكد منه لأنك قاسيت الكثير من أجل الحصول على هذا المقعد الاسمنتي البارد الذي تقتعده، تجلس عليه

اللحظة ، لكم كانت تستهويك مصارعة الثيـران ـ أقصد مشاهدة لا ممارسة ـ بل أنت من اشد النـاس حرصـا على حضور حفلاتها الموسمية المعتادة ـ وحتى الاستثنائية منهـا ـ خصوصا في فصل الصيف ، حين يتعطل الناس ، وتتحرر الأفكار من عقال جليدها الصقيعي البـارد . . اضف الى هذه العقدة اللاعدوانية ، هوايتك الأخرى الأكثر امتاعـا وتسليـة ، وان شئت الدقـة قل الأكـثر مجـانيـة ، اقصـد شغفـك البـريىء بقص ـ أو اقتـطاع ـ صـور شهـداء الكوريدا ، تلك الصور التي تزين ـ غالبا ـ أغلفة الصحف والمجـلات « الايبيريـة » القشيبة ، الـزاهية الألـوان . انك لا تستطيع ان تنفي عن نفسك هذه التهمة البريئة، بل انك لا ترى أي غضاضة في أن تقتطعها وتعلقها على الجدران داخـل « غارسـونيتك » التي تكتـريها في أحد شوارع العاصمة الطرشاء ، تلقي عليها تحية الصباح اذا استيقظت تلقي عليها تحية المساء اذا نمت ، تحدق فيها اذا تغديت ، ترنو اليها اذا تعشيت ، تتأملها اذا حسـوت الشاي ، أو دخنت سيكارك المفضلة ال ـ أم ، لكنك كنت تفعل ذلك ببرودة تامة ، لأنه لم يكن بك ميل الى مثل هذه المخلوقات الآدمية العجيبة التي تتصارع مع الثيران ، والتي طالما ذهبت ضحيـة للثيران . . ومن أجـل ماذا تقـول في

نفسك؟.. من أجل بطولة زائفة موهومة . كل هذا كنت تفكر فيه ، حين كان منوليتي يستلم « الكابا » الحمراء ، والسيف اللامع الوهاج ، ليناوش .. يتحدى .. يصارع .. ويصرع الثور المحتدم الجموح .

الثور الآن يحتل الكوريدا ، يحتل الميدان طولا وعرضا ، ارضا وفضاء ، يتحدى كل الرجال ، يقبل ، يدبر ، يثير النقع ، الغبار، من منخريه ، يتطاير الزبد ندفا ، ندفا كأنها الثلج المتهافت ، أنت تتتبع كل ذلك ، تريد ألاّ يغيب عنك ، عن عينيك شيء مطلقا ، خصوصا حركات « منوليتي » البارعة الرشيقة التي كان يؤديها في لباقة فنية جد ذكية ، حذرة ومتقنة . منوليتي مصارع فنان ، شهم وشجاع ، رفض مساعدة الآخرين ، عندما تناهى اليك رفضه لم تصدق . صحت في أعماقك :

ـ يا للشجاعة .. بوركت من رجل عظيم !!!

انهاك الثور ، وكسر حدة سورته وعنفوانه ، من طرف الفارس الذي يعتلي متن الجواد تقليد قديم ، وضروري في نفس الوقت، بل هو من طقوس اللعبة وأسرارها. الثور يتعب ، يلهث ، ينزف في مثل هذه الحال . تنكسر

شوكته ، عنجهيته ، يسهل اختراق كتفه السمينة ، صدره المكتنز العضلات ، بسيف المصارع العبقري .

هذا هو الأسلوب الكلاسيكي المعهود ، والمعمول به لحد الآن . لكن منوليتي العظيم ، أراد أن يغير من طقوس اللعبة ، أن يجدد ، ان يبتكر ، تقمصته روح « أنكيدو » ، رفض هـذه المنـة ، أشـاح عن السجعـة المستهلكـة الممجوجة ، فضل مواجهة الثور بأسلوبه الخاص ، بتقنيته الفذة ، بحركاته اليقظة ، الحذرة والرشيقة . تحدى الثور الهمجي الأرعن وهو بعد في كامل عنفوانه . لم يفرق . لم يرتعد ، لم يهتز . كان الزهو صارخا عـلى قسمات وجهـه الأسمر الوسيم حين توسط ارضية الميدان . وطىء رمـالها العطشى الى الدماء بأقدام واثقة متحدية ، رفع يديـه الى أعلى . كان يحيي كـان يتجاوب مـع عواطف وانفعـالات الجمهـور الحماسيـة المتأججـة عواطفـك وحـدهـا كـانت صخرية ، جامدة ، من يدري . . ربما كنت تحسد منوليتي عـلى القبـلات الـدافئة ، والحـارة التي كـانت تمـطر في سمائه . . وربما كنت ـ لحظتئذ ـ تحسده على شيء آخر ، تحسه ، تشعر به ، لكنك لا تدركه ، لا تتبينه ، لا تحسن التعبير عنه ، بيد أنك رغم برودة عواطفك المجانية ـ تجاه

منوليتي ـ كنت تقدره في أعماقك ، كنت تحترمه ، تتمنى لو كنته ، لو كنت منوليتي ، لأنك تدرك تماما ، أنك ومنوليتي على طرفي نقيض ، أنت تختبىء داخل جلدك ، تغور في تضاريس جبنك ، ضآلتك ، صغارك ، هذا شيء تعرفه ، وتسلم به بينك وبين نفسك . أما هو فقد رفض أن يختبىء داخل جلده ، رفض أن يرتدي تلك القشرة الشوهاء ، قشرة الضب الشارد في العراء . فتعرى تماما ، كما يفعل الثعبان حين ينسلخ من غشائه القديم المهترىء . تتأمل أنت منوليتي ، يتأمله الجمهور أيضاً . لكم هو رائع في عريه ، لكم هو فاتن ومغر ، اشتهته أكثر من غجرية سمراء . كل نساء المدينة كن يتأملنه ، يطبقن عليه الأعين ، الجوانح ، القلوب . لقد اشتهينه بكل شراهة الأنثى . كنت تحس بهذا ، كنت تلاحظ أكثر من هذا . كانت أجمل عجرية تنظر اليه ، تتسلقه ، تلحسه بعينيها ، بأهدابها ، بأنفها ، بلسانها ، وبكل خفقة في قلبها . كانت ترسل اليه عبر الأثير قبلات العشق والهيام محمومة دائخة ، وكان هو يستقبل ، يتلقى كل ذلك بامتنان وفرح طفولي ، لم يكن في حاجة الى معجبة جديدة ، ما أكثر المعجبات في حياته . . وانما كان في أشد الحاجة الى ملهمة

عاشقة والهة تغرقه حنانا ودفئا وابداعا . أخيرا اكتشفها ، استشف فتونها ، جنونها ، تـراءى له نصـل عينيها البـاتر الفتاك وقد انغرز في لحم صدره ، اخترق حنايا أضلعه ، استقر في سويداء قلبه ، في خفقه ، في روحه . أنت الآن لا تستهجن تصرف منوليتي ، لا تستغرب رفضه المساعدة المقـدمـة اليـه من طـرف الآخـرين . تصـرف عن طبـع وسجية . كأي فارس نبيل محب ليحوز مزيدا من اعجاب حبيبته الفاتنة ، ليزيد من نار العشق المتضرمة في قلبهـا - لكم أنت بليـد وتافـه وجبـان . أخيـرا فهمت كـل هـذه الألغـاز . أدركت السر الكـامل وراء انـدفـاع منـوليتي ، شجاعته ، اقدامه في مواجهة الثـور الهمجي الطبـاع وهو بعد في كامل قوته وعنفوانه ، لقد استمد مضاء عزيمته من صفاء عينيها الدعجاوين الـواسعتين ، فتصـدى له وجهـا لوجه ، كل الأحداق قفزت من محاجـرها ، كـل الأنفاس تعلقت بما يجري في ميدان الفروسية والبطولة، ازددت انت ضآلة وصغارا ، غرت أكثر من اللازم في جلدك ، جلدك ينز عرقـا صبيباً، اعصـابك مشـدودة كأسـلاك الغسيل ، قلبك بين الضلوع كفرس جموح في حلبة السباق . الثـور يهجم عـلى منوليتي ، منـوليتي يهجم على الثـور ، كلاهمـا

يهاجم الآخر ، تصادما تلاحما ، تصارعا ، تلاحقت انفاسك بشكل رهيب ، ازدادت نبضات قلبك لدرجة الارتعاش . . . تفصد العرق من جبينك الكالح اللون . . . ما أتفهك . . ما اجبنك . . ما أصغرك!! القشعريرة تتبدى بوضوح على أعضائك ، ترتجف أطرافك ، ترتعش أجفانك المنسولة الأهداب ، تركز عينيك بمشقة في بؤرة الصراع . كان الثور هائلا ، شرسا ، محتدما ، جموحا . وكان منوليتي ذكيا ، رشيقا ، مبدعا . كان بارعا في المداورة والنزال . حاز التأييد والتصفيق والهتاف والقبلات وباقات الزهور ومناديل الحرير المضمخة بالعطور . كل هذا لم يغرب عن بالك ، بل لاحظت أكثر من هذا ، رأيت الغجرية الفاتنة وقد انتشت حتى القمة ، تشنجت من فرط النشوة ، طفقت تنط . . تصيح بأعلى صوتها الدافىء المنغوم ، تحفزه ، تعصره ، تمطره قبلا ، عطرا ، لذة . وكان هو - اقصد منوليتي - في قمة النشوة . كل حسناوات « قرطبة » نثرن الزهور . . . العطور . . المناديل . . القبلات على رأس الفارس المغوار . خصلات شعره الكستنائية الناعمة ، هي الأخرى ، كانت نشوانة ، متمايلة ، تخاصر وتراقص

النسيم الـرخي ، تنشق رذاذ العطر المنسكب من فـوق . لقـد أغرقتـه الغجريـة القـرطبيـة العينـين قبـلا ، دفئـا ، شهـوة . . . تتنهد أنت حـزنا ، غيـظا ، حقـدا . تمسح العرق من على جبينك للمرة الألف ، كان القيظ شديدا ، حانقا ، مـزعجا ، لكـأنما « قـرطبة » نقـطة ما في خـارطة أفريقيا ، النقطة ساخنـة ملتهبة ، تتلظى نـارا ، سعيرا . حبات العرق تتنزى من جبينك الكـالح اللون ، تتسـاقط فوق عظمـة أنفك ، تتسـرب تحت قميصك المرقع ببقـع زيت تشحيم السيارات . لم تكن انيقا مثـل منوليتي ، ولا حتى في مستوى ذكائه ، أو طموحه ، أو شجاعتـه ، ومع ذلك كنت تشعر بالغبن ، بالغيظ ، بـالحسد . تتنفس في مشقة ، تتنشق روائح العـطر الأنثوي دون مقـابل ، بـل تمنيت أن تحضن بـين ذراعيك غجـرية العينـين والشفتـين بشبقية كلبية . ولكن كيف . . سألت نفسك . . « هل في امكـاني أن « أتخلق » أن أتشكـل « منـوليتي » جـديـدا ، شجـاعا ، رائعـا ، مبدعـا وفاتنا ؟! . وبلعت ريقـك ، شعرت بغصة في حلقك ، فأنت لا تستطيع أن تتحول ، أن تتشكل ، أن تكونه ، أو تكون ظلاله على الأقل لسبب واحد ، تافه وحقير في نفس الوقت . أنت تعرفـه جيدا ،

تدركه ، تعترف به . أنت تختبىء داخـل جلدك ، تـغور فيـه ، تغرق ، جلدك يـأويك . أصبـح بعد « الدَّبغ » والتحميض يتسـع لك ، لجبنـك ، لعفنك ، لبـلادتك . لقد أصبح جلدك بعضا منك .

الحلزون أشجــع منــك وأنبــل . تفكــر تتحسس أعضاءك ، أنت ـ اللحظة ـ ترتجف ، ترتعد ، تصطك ، تنهار . أنت ترهب اللون الأحمر ، لا فرق بينك وبين الثور الذي يبغض « الكابا » ، يهاجمها ، يحاول أن يمزقها ، ينثرها ، يبددها . أما منوليتي الـذي تعرفـه جيدا ، فقـد تحدى كل هذه الأشياء، المثبطات ، خيب ظنك، ارتكست أحـلامك في الـطين ، الـوحـل . عسـير جـدا أن تكـون منـوليتي ، أن تترسم خـطـاهُ ، طـريقه . منـوليتي أبـرع مصارع في تاريخ « الكوريدا » على الأطلاق .

انظر اليه بأم عينيك ، لتتأكد ، لتزداد ايمانا : وتنظر اليه بأمعان مرة أخرى . . تتأمّله ، ها هو مـا زال يناوش الثّور في بـراعــة منقـطعــة النـظير ، والجمهــور يصفّق منتشيـا . . ينشقّ حمـاسـا ، تنتشي أنت الآخـر بمـا فيـه الكفـايـة ، ليس من عـادة منـوليتي أن يجهـز عـلى عـدوّه غـدراً . . أن يطعنـه في الظّهـر ، بل هـو يفسـح لـه . .

لخصمه ، ليستعمل قوّته . . سلاحه . . حقّه في الدّفاع عن نفسه . يعطيه أكثر من فرصة للانتصار . . للظفر ، ولكنّه في النّهاية . . نهاية المطاف ، الجولة . . يستهجن اللّعبة ، يستثقلها ، يتمرّد عقله على ارادته ، يطغى الوحش على الانسان . . يصمّم على قهر خصمه حسب الأصول . . يقرّر صرع الثّور المتثاقل المنهك الذي ترتعد فرائصك لدى رؤ يته ، لدى التّحديق في عينيه الوحشيتين الكبيرتين . . .

شعرت بالقرف . . بالاشمئزاز من طول ما عانيت من كبح عواطفك المتضاربة والمتداخلة . حقّا ، كانت الجولات طويلة وملغومة بالانفعالات . . .

أكفّ الجمهور . . . حناجر العذارى . . . لم تكف لحظة واحدة عن التّصفيق . . الهتاف . . الزّعيق ، تاقت نفسك الى لحظة التّنوير . . الانفراج ، بقدر ما أشفقت عليها من ويلات ـ أو مضاعفات ـ اللحظات الحرجة التي كنت تعيشها لحظة (الكوريدا) ـ الصّراع ـ لكنّك تفاجأت من حيث لم تحتسب ، أنّ منوليتي ، يندفع صوب الثّور . . يتحدّاه ، ربّما للمرّة الأخيرة ، المرّة العشرين . . أو الخمسين . . من يدري . . .؟ ها هو يدفع (الكابا) في

وجهـــه . . في عينيــه . . في همجيتـــه ، يســتثيــره . . يستفزّه . . . يتحدّاه . . يتلاعب بغرائزه . . بعواطفه . . بأعصابه ، يتثنّى برشاقة ، يستشعر الزّهـو . . . الخيلاء ، أهـالي (قرطبـة) يتفرّجـون على (الخـوكـادا) ـ اللّعبـة ـ يقضمون فطائر (السّندويتش) ، وربّما قضموا أصـابعهم سهـوا . . وحـلاوة . . . يمتصّـون حبـوب عبّـاد الشّمس المملحــة واللّذيـذة . . يعلكــون عجـائن اللّبــان . . . يضحكون . . . يقهقهون :

ــ أوليه ! . . أوليه . ! . أوليه ! ! .

ــ منوليتي . . . منوليتي . . . منـوليتي ! ! ! .

كانوا كلّهم مقتنعين بعبقرية الابن البار . . الفـارس الشّجـاع ، الذي لم يـرث سرّ المهنـة عن أبيـه ، ولا عن جدّه . . . بل هو لا يكاد يعرف جدّه على وجه الدّقة ، ولا هو يؤمن بشجرة الأنســاب ، أو نبالـة الدّم الأزرق . . . وهــج الصّحارى المحـرقة يلتهب . . . يتلظّى في أعـراقه بـاستمرار ، أنت أيضـاً مقتنع تمـاما بصحّـة النّظريـة . . مؤمن بها ، منطقيّ جدّاً أن يرفض الأبناء تركة الآباء . . أنت لا تجادل فيما هو منطقي وواقعي . . . لا تـرفضه مـا دام يتمشّى مع الحياة الطّبيعية والواقع المعيش ، إنمـا عيبك

الوحيد ، مرضك المزمن لحدّ القرف . . . ورغم كلّ ما حدث ، هو اختباؤك داخل جلدك . . . جلدك السّميك القذر الذي ما زال يأويك ، والذي لم يستطع أن يتخلص منك ولم تستطع أن تتخلّص منه .

منوليتي وحده ، تعرّى ، صارع الثّور في أوج عنفوانه ، طعنه في أكثر من موضع ، لكنّه لم يجهز عليه ، أراد ـ ولست تدري لماذا ـ أن يطيل الجولات . . أن يجعل اللعبة ـ الخوكادا ـ أكثر امتاعا ولذّة . . . أن يبدي من فنون الفروسية ـ أمام غجريته الفاتنة ـ اروع ضروب الشّجاعة والبطولة ، لدرجة أنّها هي نفسها ، ملّت ذلك منه ، فكانت تصيح بأعلى صوتها . . . تستعجل مصرع الثّور المحتدم الجموح ، ربّما خوفا على حبيبها . . . من يدري . . ؟ فللعشاق فراسة لا تخطىء! . .

فطن منوليتي أخيرا ، أدرك رغبة معشوقته الوالهة . . كان هو أيضاً قد ملّ اللّعبة . . . تاقت نفسه الى الارتماء بين أحضان الحبيبة المتعجّلة ، الى الذّوبان . . . التّلاشي في دفئها ، حنانها ، خصوبتها . . .

لم تبق غير دقائق معدودة ويتلاشى (منوليتي) في أحضان غجريته الولهى ، يخضرّ . . يبرعم . . . يورق في

قلبها ، يثمر قمحا . . . تينا . . قصبا . . . زيتونا . .
. . نخلا . . أبّاً متاعا ، وحدائق غلبا وفاكهة ، وأغنيات شعر
تسيل عذوبة في معزوفات (التروبادور) ومواويلهم
الرّقيقة . . .

أحس منوليتي أنّ الوقت قد حان . . عليه أن يحسم
الموقف ، أن يشدَّ أوتار القيثار . . . واذا هو يواجه الثّور
اللاهث المزبد الأشداق ، صوّب الى كتفه النّصل الحاد
بدقّة واحكام ، لكن القوّة الكامنة في عضله المفتول
المنهك ، خانته فجأة . . . خذلته . . . تخلّت عنه وهو في
قمّة مجده . . .

كرّ الثّور في لمح البصر ، تدحرج ، وقد أخطأ النّصل
كتفه ـ واذا هو ينهال (كجلمود صخر حطّه السّيل من
عل) . واذا القرنان الحادّان المتحفزان يخترمان جسد
منوليتي . . . هرشه بأنيابه الحادّة . . . أحكم على قلبه
قواطع من فولاذ ، داسه بأظلافه ، أعمل في صدره الفتك
والتّمزيق . . رفعه ، خفضه ، جرجره ، تدفّق الدّم من
فيه . . من خياشمه ، من رأسه ، من صدره ، من
فخذه ، من عضو ذكورته ، من كلّ قطعة لحم في
جسده . . . سال الدّم أحمر ، قانيا فوق أرضية الميدان .

كوّن بقعة ، بركة ، بحيرة ، بحرا ، محيطا . كل الأمداء بلون الدّم ، يغطّي أرضية الكوريدا ، يخضّب كل حبّة رمل ، كل نبتة عشب ، كل خفقة قلب . . . صارت الكوريدا حمراء . . . حمراء . . .

ذعرت أنت ، كنت أوّل من ذعر ، اصطكّت ركبتاك ، تعثّرت في نعليك ، لم تتمكّن من الفرار بسهولة ، صرخت تطلب النّجدة . تلاشت الصّرخة داخل اعماقك المظلمة ، كان جلدك سميكا ، قذرا ، عازلا . . . فلم يستطع الآخرون سماعك . . . اغاثتك ، بل هم سمعوك ، لكنّهم لم يعيروك أيّ اهتمام . . .

اختلط الحابل بالنابل ، صرت تبحث عن صوتك الضّائع دون جدوى . ثمّ . . . ثمّ ابتلعتكم الأرض جميعا ، لكأنّما حصبتكم الطّير الأبابيل . . .

أمست أرضية الكوريدا قاعا بلقعا ، دماء منوليتي وحدها صمدت ، توهّجت ، اتّقدت ، خضبت ، حبّات الرّمل الملتهبة ، صارت لها رائحة غريبة ، ظلّت عالقة بأنفك . . . طرية ، ساخنة ـ وما تزال ـ أنت تستنشقها كلما تذكرت ، منوليتي ، ذلك العاشق المغدور! . .

الغجرية تندب حبيبها :

الغجرية وحدها لم تفرق ، لم تنشق ، لم ترتعد ، فقط تجمّدت في وقفتها ، ظلت تنظر الى حبيبها الطّعين ، المغدور ، بعينين واسعتين ، متحجّرتين ، مليئتين بالدّمع السّاخن العصيّ . . . لم تصدّق أنّ حبيبها الرّائع الشّجاع قد مات . . . قد قتل . . . صرعه الثّور الهمجيّ الأعمى ، غاله في وهج الظّهيرة ، لم تصدّق ، باغتها الخطب ، خشّبتها المفاجأة . . . كانت تقف وحدها في الميدان . . . جنبات الكوريدا . . . الجدران الواطئة . . . الحواجز الخشبيّة . . وحتى لوائح الاعلانات المزيّفة الكاذبة ، كلّ شيء ، كلّ العالم ، كان يشاركها صمتها . . حزنها ، عيّها ، عجزها ، عن الصّراخ ، عن البكاء ، عن الرّثاء . . . ما زال الهتاف ، التصفيق ، الزّعيق ، يملأ سمعها ، قلبها . اكليل الغار الذي قطفت زهراته البيضاء . . الحمراء . . الصّفراء . . وبكلّ الألوان القزحية الزّاهية ، والذي نضّدته . . . ضفرته . . . جدّلته بيمناها ، ما انفكّ ميّتا بيسراها . . .

أين كلّ أولئك الذين ملأوا الفضاء زعيقا . . ؟ هتافا ؟ تصفيقا ؟ أين الدّجالون ؟ . . المرّاؤ ون . . ؟

المتـــواطئـــون الســفـلة . . ؟؟ مــا بــالهم غـــاروا . . ؟ تضاءلوا . . . ؟ تلاشوا . . ؟ اختبأوا داخل جلودهم القذرة النّتنة . . ؟

ابتلعتهـم الأرض . . ؟ أم اختــطفتهـم شيــاطــين الجحيم . . . ؟

ـ لماذا خذلوا حبيبي الرّائع الشّجاع . . ؟

لـماذا لم يجهزوا عـلى الثّور قبـل أن يتمكّن من صـدر حبيبي ؟ ويعمل قرنيه في قلبي الطّعين . . ؟

ألم يكن منوليتي صادقا في حبّه . . ؟ في حسّه . . ؟ في شعـوره . . ؟ في عواطفـه تجـاه الآخـرين . . ؟ تجـاه كـلّ النّاس . . ؟

ألم تكن نوازعه وآماله نبيلة ، صادقة وهادفة . . ؟

ألم يبعث في قلوبكم نشوة الظّفر . . ؟

ألم ينتصــر عــلى همجيــة الغـــاب . . ؟ لـكم . . ؟ للانسان . . ؟

لماذا تخلّيتم عنه اذن . . ؟

لماذا تخلّيتم عن حبيبي الرّائع الشّجاع . . ؟

ـ قال صوت ما :

ـ لا فـرق بين منـوليتي والثّور . . . كـلاهمـا همجيّ الـطّباع . . . الثّـور يغتال في صـدورنا أنفـاس الحياة . . يـزرع في قلوبنا الجبن . . المـذلّة . . الصّغـار . . المـوت البطيء . . ومنوليتي يعلمنا عبادة الأوثـان . . يعلن نفسه الها للبرّية . . .

صوت ثان :

ـ عـواطفنا أثمن من أن تستقـطر في قنـاني خـاصّـة ويتطيّب بها في مهرجانات الكوريدا . . .

صوت ثالث :

ـ الثـور في منـوليتي ، ومنـوليتي في الثّـور . انتصـار أحدهما انتصار للآخر . . لا فرق . . لا فرق . . .

صوت رابع وخامس وسادس و . . .

ـ كـلاهمـا يـريـد أن يستعبـدنـا ، أن يتـلاعب بعـواطفنا . . أرواحنـا ، مصائـرنا . . دقّـات قلوبنـا . . كلاهما يزيّفنا ، يتاجر فينا . . . يبيعنا . . .

ولّمـا أدركت الغجـريّـة انّها وحيـدة ، وأنّها تهـذي ،

انبجست الـدّموع من عينيهـا ، كانت الـدّموع هـذه المرّة ساخنـة ، ذائبـة ، سهلة الانسيـاب . . . لم تتمنّـع ، لم يحجزها الكبرياء الكـاذب . . ذابت . . انهمرت تمـاما ، كالجدول المكبّل بالجليد فاجأه دفء الرّبيع . . .

أمـطرت حـدقتـاهـا نــارا . . . لهيـبا . . أمــطرت حقدا . . كانت غواربها تسـحّ . . . تسحّ . . . لا تبخـل بالدّموع . . . انّها كلّ ثروتها . . . انّها لا تملك غـير هذه الزّخّات . . زخّات مطر ساخن ملتهب ، يحرق خـدّيها ، يجلد البذرة الهاجعة في أحشائها ، يحرقها . . يبدّدهـا . . يحيلها جدبا ، قحطا ، رمادا . . .

الغجـريـة تتخـطّى الحـواجــز الخشبيّـة المــزركشـة بالاعلانات التّجارية الكاذبة ، تطأ بقدميها ـ يـطأ الثّلج ـ نجيع الدّماء .

كانت سمراء فارعة ، متوهّجة الخـدّ والجبين ، تشي بحـرارة الدّم الملتهب الـوهّاج ، وكـان الدّم مـرآة حمـراء صقيلة ، كانت المرآة تعكس نبض قلبها الذّبيح ، وأشواقه الرّاعفة.، لم ترفع الغجرية حواشي (تنّورتها) الأندلسيـة ذات (الدّنتيلا) الحريريّة المزركشة الألوان . . . لم تـرفع ثوبها كما فعلت (بلقيس) حين وطئت قدماها العاجيتـان

رخام القصر الملوكيّ البديع الذي صنعته الجنّ ، في حضرة سليمان . لم تفعل ، لأنّها لم تكن مليكة ، ولا أميرة ، أو حتّى وليـة عهد . كـانت فقط ، وهذا ليس بـذي بـال ، غجرية عاشقة ، تدلّهت حبّا ، أتخمها حبيبها غـزلا ، فلمّا امتدّت يداها للارتواء ، تهاوى الحبيب بين يديها مجندلا في الدّماء . .

انّها في هـذه اللّحظة الحـرجة ، لا تعي ، لا تعبـأ ، الكلّ سيان ، رخام القصر أو ساحة (الكـوريدا) ، بـل هي واعية أنّها تطأ رملا . . ترابا وليس رخاما ، وأنّها تعفّر قدميها بدماء قلب وآماله . . . دماء ممزوجة بدموع الأرض التّرابية . . ؟ أنّها اللحظة ـ وكلّ لحظة ـ شيء واحد تماما ، وما جدوى التّفريق والتّمييز بين الدّم والتّراب . . . ؟ والاّ مـا كانت هي لتنـدفع هكـذا صوب حبيبهـا المجنـدل في الدّماء . . .

الدّماء طرية ساخنة متوهّجة ، تتطاير بقعا ، وشما ، نقشـا ، أو تطريـزا . . على ثـوبها ، عـلى لحمهـا ، عـلى صدرها ، على حوضها ، على رحمها . . .

كانت الدّماء الزّكيـة تعلق بكلّ عـطفة ، أو ثنيـة في ثوبها ، في خارطة جسدها المتشنّج الجريح .

لم ينج جزء واحد منها ، من لـون (الكابـا) الأحمر القاني ، وحين انحنت عليه ، تأمّلته طويـلا ، حدّقت في صمت عينيه ، سافرت في نجيع جرحه . . . تـلاشت في صفرة خدّيه . . في شحوب شفتيه ، ثمّ ضمّته الى صدرها الجـامح النّبضـة واذا هي الأخرى ، تصـير وشاحـا قـاني اللون . . تصير (كابا) وهّاجة الحمرة !

حوارية خاصّة بأطفال قرطبة :

طفل : كان أبي رجلا نبيلا وشجاعا .

طفل : مثل أبي تماما .

طفل : يقينا لم يبلغا حذاء أبي .

طفل : هل تشتمنا يا هذا . . ؟
أين الأخلاق والنّبالة التي تتشدّق بها . . ؟

طفـل : كفـاكم هـذرا وسفسـطة . . . فكّــروا في الأهمّ والأفضـل . . في الحـاضـر والـواقــع . . دعـوا الأمـوات في ذمّـة التّـاريـخ ، التّـاريـخ مملكـة الأمــوات . . . مـقبــرة الأشــلاء . . ومـتّكــأ العاجزين . .

طفـل : صـه . . . لا ينبغي أن تشتم الأمــوات ، بهـذه

الصّفاقة ، أنت لا تحترم التّاريخ . . التّاريخ مرآة
الأمة . . سرّ وجودها ، فيه تتغذّى الجذور ، ان
كنت لا تملك جذورا فأنت معرّض للتّصفية ، قد
تقتلعك الرّيح في أيّ فرصة ، ثمّ انّ التّاريخ
سجلّ الرّوائع والأمجاد . . أمجادنا جميعا . . كيف
لا تعترف بهذا . .؟ هل تجهل أبجدية الحضور
الى هذا الحدّ . .؟

طفل : لا تكثر من لومه يا أخي . . قد يكون
معذورا . . . بل التمس له أيّ عذر . . . فهو لم
ير وجه أبيه . . . حدّثوه عنه فقط ، مرّة ذكره
شاعر جوّال من شعراء (التروبادور) . . .

طفل : آه . . . تذكّرت . . كانت تندبه غجرية سمراء
ذابلة العينين من فرط البكاء . . .

طفل : كفى . . كفى . . لا تعيّره بنسبه . . ألم نقل أنّه
معذور؟ . .

طفل : ثم لا تنس أنّ أمّك هي الأخرى ، كانت شيخة
شطاحة في الأعراس . . . وحفلات الختان . . .

طفل : أما أنا . . .

طفل : نعرف . . نعرف . . لسنا في حاجة الى عنتريات

أبيك ، أو سخافات أمّك ، لو كنت في موقفك لما تجرّأت على الظّهور . .

طفل : صحيح . . كان أبوه جبانا . . وما زال . . يرتدي جلد ضبّ شارد في الصّحراء . . .

طفل : بل هو يستعير فساتين الحرباء . . .

طفل : ويكثر من . . .

طفل : لقد بلغ السّيل الزّبى . . . أكثرتم على الولد ، ما ذنبه هو . . . ؟ شتم الأموات من شيّم الجبناء . .

طفل : التّاريخ ليس مقدّسا . . يحرم علينا الدّخول فيه أو التّحدّث عنه . . انّه في حاجة الى الدّراسة والفهم الصّحيحين . . كما أنّنا في أشدّ الحاجة الى تجاوزه بكلّ ما تنطوي عليه كلمة التّجاوز من معنى واضاءة . . .

طفل : قد يشتم النّاس ـ وقد فعلوا عبر مختلف العصور ـ حتّى الأبطال النّبلاء الذين صنعوا تاريخ الشّعوب ، وصاغوا نصوصه بدمائهم الزّكية . . . ولكن ذاكرة الشعب لا تنسى ، ستضع كلّ واحد في حجمه الحقيقي . . .

طفل : هذا صحيح . . لا تبتئس يا أخي . . (مربّتا على

ظهر زميله الى جانبه) ، كان أبي رجلا شجاعا ، بل كان نسيجا وحده بين الرّجال .. الأبطال .. ومع ذلك ، لم ينج من الغمز واللّمز والتّجريح .

طفل : النّاس في كلّ مكان وزمان جارحون كالخفافيش التي تعتاش في المغاور والخرائب ...

طفل : تقول .. كان أبوك شجاعا ... ترى بأي ميزان تزن مفهوم الشجاعة ..؟ والبطولة ..؟

طفل : بل قل .. كيف يجيز لنفسه دمغ الآخرين بالجبن والخفّاشية ونذالة الأعمال ..؟

طفل : أتسمّي مناطحة الثّور بطولة..؟ ودفاعا عن حقوق الآخرين ..؟

طفل : حسنا .. من هنا ينبغي أن نبدأ .. لا بدّ أن تكون المناقشة هادفة ومثمرة ...

طفل : لقد كدنا أن نمسك بأوّل الخيط ...

طفل : كيف تغضّون الطّرف ، وتطمسون الحقيقة ..؟ أكنتم ترغبون في تفسير التاريخ حسب أهوائكم المغرّضة .؟ ألم يتحد أبوه همجية الثّور في زمن ما ..؟

طفل : صحيح .. هكذا قالوا .. قال فلان عن

فلان . . عن فلان . . . الى آخر العنعنة . .

طفـل : لكن هذه العنعنـة لا تطعن في امكـانيـة حـدوث الواقعة .

طفـل : الواقعـة التاريخيـة شيء حقيقي . . . ومصارعـة الثّـور حادثـة تاريخيـة حدثت قبـل ولادتنا بـزمن قليل ، والعنعنة سند علمي أصيل نابع من واقعنا المعيش منذ القديم . . .

طفل : وهذا ما يؤكد فعلا حقيقتها الدموية . .

طفل : كيف . . ؟ كيف . . ؟ أنا لم أر ولم أسمع . . ؟

طفل : يحكى والله أعلم . . . أنه كان في زمن قبل زمننا هـذا ، رجـل شجـاع ـ أو متهـوّر حسب رأي بعضهم ـ كان قاب قوسين أو أدنى من كسـر قرن الثّور . . لكن داسه ظلف الثّور . . . بعجه قـرن الثّور . . .

طفل : كان شهيدا . . دماء الشهداء لا تخبو . . لا أحـد ينكر هذا . .

طفل : (يرفع كفّيه مستمطرا رحمة السّماء) .
اللهمّ اغفر له ما تقدّم وما تأخّر . . اللّهم اسكنه

فسيح جنانك . . مع الأبطال والشهداء والفقـراء والصّامتين .

طفل : (في حماس ملتهب) ما دام الأبطال يفوزون بكلّ هـذا ، ذكر حسن في التـاريخ ، وخلود في ذاكـرة الفقراء . . وجنّات فسيحـات عرضهـا السّماوات والأرض . . مـا دام الأمر كـذلك ، أقسم أنّي لن أكون غير مصارع ثيران .

طفـل : ويصفّق لك في الكـوريدا ، وتنـثر فـوق رأسـك الزّهور والعطور والمناديل والقبلات و . . .

طفل : (في حالة هياج) ، وأنـا سأطعن صـدر الثّور . . وظهـره في أكـثر من مـوضـع . . ولن أمكّنـه من نفسي أبدا . . أبدا . . .

طفل : (في هيأة عنترية) بل سأكون أسرع منك لالتقاط السيف . . وأبـرع منك في تسـديـد الـطّعنـة . . عندما أتدوّر . . أكبر . . أصير في مثل قامة منوليتي العظيم . . .

طفل : (بانفعال وفي لهجة آمرة متذمّرة) مهلا . . مهـلا أيها الرّفاق . . . أبو زيد ، وذو يزن ، وعنترة من نسـج خيـال الـرّواة والمغـرمـين بخلق القصص

والأساطير ، هـذه الأساطـير طالما خدّرت عقـول آبـائنا ، زمنـا طويـلا ، وأخاف ونحن نقـرأها في الطّبعات الردّيئة ـ أن تخدّر عقولنا نحن أيضاً . .

طفل : انّه تاريخ متراكم ، تختلط فيه الحقيقة بالأسطورة ، ولكن لا بأس ، لقد بدأت الاضاءة الكاشفة على أكـثر من مستـوى . . . وسيعـود كـل النـاس الى أحجـامهم الحقيقية ، حتّى أولئـك الذين تـوهّمـوا أنفسهم أنصاف آلهة ، أو أبطالا من طينة غير طينة البشر ، سيعودون الى احجامهم « وسيعلمون أيّ منقلب ينقلبون . . . » .

طفل : ثمّ انّ البطولات الفردية ـ أو الدونكشوطية (بتعبير أصـحّ) ـ لن تحـلّ العقـدة ، ولن تنهي ظـاهـرة الكوريدا الدّموية . . .

طفـل : وستعـاد مشـاهـد الكـوريـدا آلاف المـرّات ، وسيقتـل ، يغتـال ويتمـزّق جسم منـوليتي آلاف المـرّات أيضاً . ستختلط دمـاء شهداء الكـوريدا ألف ألف مرّة . . .

طفل : ولن يقضى على الثّور . . .

طفل : ولن تمحى مشاهد الكوريدا من ذاكرة التاريخ أبد الدّهر . . .

طفل : بل يتمزّق هذا الثّور ، يطعن حتّى النّخاع ويحرق حتّى في لوحات (غوايا) أو (بيكاسو) . . .

أطفال : كيف . ؟ كيف . . ؟ كيف . . ؟

. . . .

. . . .

(ولّما لم يجبهم أحد ، اعترتهم حماسة كاسحة . . ارتفعت أصواتهم الخريرية المتدفّقة والمتداخلة في نفس الوقت . . وهم يردّدون :

ــ الى الكوريدا . . . الى الكوريدا . . . أيّها الرّفاق كلنا ننزل الى السّاحة . . الى الميدان . . . نواجه الثور . . ندخل في عينيه الوحشتين القانيتين ، لن نرهب عينيه بعد اليوم . . . سنواجهها . . نتحدّاها . . وسنقتله ، نصرعه . . نوزّع دمه في المدن . . القبائل ، وفي القصائد . . اللوحات . . ومواويل الغجر الفقراء . . .

حاشية غير ضرورية :

أنت الآن مستلق على سريرك الخشبي ، داخل

حجرتك الضيّقة المغلقة الباب والنوافذ ، لقد نجوت من زحام الكوريدا بشقّ النّفس ، تمكّنت من الهرب . . . النّجاة . . . بأعجوبة ، أعتقد أنّها لن تتكرّر . . . بينك وبين النّاس والشّمس عداوة . . .

تتكسّل . . تمدّد رجليك في وجه التّلفزيون ، أنت تملك جهاز تلفزيون صغير جدّا . . ترى كيف حصلت عليه . . ؟ لا أحد يعلم . . . حتّى دار الاذاعة ـ قسم تحصيل الضّرائب ـ لا تعلم أنّك تملك جهازا كهذا . . . ولكن ما المانع . . ؟أليس من حقّي أن أمتلك جهاز تلفزيون . . ؟ تقول هذا لنفسك في عصبية مبحوحة . . ثمّ ترمق الصّور المتحركة في قرف واشمئزاز . . . وتتذكر . . منذ متى وهذا الجهاز في حوزتك . . . ؟ لعلّه نسيّه . . (أو هو تخلّى عنه ، من يدري . . ؟ لقد مرّ على غيابه أكثر من سنة . . حينما عاد من (هلندا) في الصيف الماضي وزارك في حجرتك الحقيرة هذه ، قال لك :

ـ عندي في السيارة جهاز تلفزيون ، لا يشتغل بغير الكهرباء . . وكما تعلم ، في القرية لا توجد كهرباء . . سأتركه أمانة عندك الى حين عودتي وراء البحر ، وفي امكانك ان تشغّله . . رغم صغر حجمه ، ينقل لك

الصور المتحركة بطريقة جيدة . . .

ولكنه لم يعد ، رحل الى (هلندا) في يوم ما . . ونسي جهازه . . . وربّما تخلّى عنه بمحض ارادته . . .

من يدري . . ؟ فهو صديقي . . ولن يضيره في شيء أن ينسى عندي جهاز تلفزيون صغير . . .

كل هذا تتذكره ، ثم تتململ في ضجعتك . . تمدّد رجليك أكثر ، تتابع الصور المتحركة في قرف واشمئزاز أكثر أيضاً . . لكنك تشعر أن مثل هذه الألعاب تسليك . . . أو تثير ضحكك . . .

ما زال الكابوس جاثما على صدرك . . حقا لقد كان كابوسا مرعبا . . . كل المدن . . القبائل ، هزّتها المفاجأة . . النّكسة . . .

آه . . لكم صعب عليك أن تنسى . . .

عندما دخلت الى حجرتك الضيقة الحقيرة ، أغلقت الباب باحكام ، وكذا النوافذ ، ثمّ أسدلت الستائر المشجرة ببقع الزيت . . . زيت تشحيم السيارات . لن تخرج الى الكوريدا مرة أخرى ، لأنك لن تنجو من العينين الوحشيتين في المرة القادمة . . . بل قل لن تفلت من

القرنين الحادين المتحفزين المنتصبين في شبق جنوني .

أف . . . ما لي ومصارعة الثيران . . ؟

لن أحضر مرة أخرى . . . (تقول في نفسك) تشعل دخينة تبغ من نوع (ال ـ أم) ، لعلّها هي الأخرى أهديت لك في مناسبة ما ، فأنت كثير الأصدقاء . . . كلهم هاجروا وراء البحر الأبيض المتوسط . . . بعضهم يعود في الصيف ، كحامد الذي أهداك جهاز التلفزيون . . . (أو لعله نسيه ، وبعضهم لا يعود . . . كلهم تقريبا ساحوا في أرض الله الواسعة ، الا أنت . . . وحدك تملك عواطف قوية تجاه حجرتك الضيقة الحقيرة . . .

تنتهي الدخينة . . تشعل ثانية وثالثة وربما رابعة ، تنفث خطوطا من الدخان متوازية ومتعرجة ومنكسرة وبعضها دائري ، وبعضها الآخر في أشكال ومساحات لا حجم ، لا لون لها . لقد امتلأ فضاء الحجرة الضيقة بسحائب الدخان الكثيفة . أنت تدخن بشراهة . . . تستمريء اللعبة . . تتتبّع الخطوط الرّاحلة التي كوّنت سديما متداخلا في فضاء الحجرة الضيقة ، بلون الرماد . . .

تفكّر . . تستغرق في التفكير . . تعود الى مخيلتك كل مناظر الظهيرة ، تجتاحك شتى المشاعر الاحساسات . . التوقعات . . تتذكر الثور ، الساحة ، الجمهور ، التصفيق ، الكابا الحمراء ، السهام المريشة ، السكين الحادة ، قطع (البفتيك) الطرية . . المتبلة واللذيذة ، ندف الرغوة البيضاء المتطايرة من منخري الثور ، عيني الغجرية الواسعتين الجميلتين ، قبلاتها المتهادية في الهواء ، حركات (منوليتي) الرشيقة ، التصفيقات الحارة والمتواصلة ، نشوته المتعاظمة ، ثم . . . ثم انكساره . . . سقوطه تمزّقه بين قرني الثور . . ظلفيه . . أنيابه ، وهو في قمّة انتصاره ، ثمّ . . ثمّ وأنت تذوب في الخوف . . . الزحام ، تغلق الباب وراءك . . تتأكد من اغلاقه ، تستلقي على سريرك الخشبي المهترىء الأخشاب ، تحاول تهدئة أعصابك بشيء ما . . . تلتقط مجلة جدّ قديمة ، مجلة شبه أدبية ، تمسح بعينيك صفحاتها المتآكلة الأطراف ، تستقرّ عيناك على صفحة باهتة مهترئة ، ثمّ . . . ثمّ قراءتك لحوارية الأطفال التي كتبها شاعر جوّال من شعراء (التروبادور) كل هذه الأشياء تتذكرها ، وفجأة ، تنتابك القشعريرة ، الصدمة ، تتخيل نفسك تهذي ، تصرخ ،

تتخبّط بين الجمهور المتراكض نحو المداخل والأبواب ، العرق يتصبّب من جبينك . . من عنقك ، من كلّ جسدك ، صراخك ، استغاثاتك ترتدّ الى جوفك . . . تموت قبل أن تصل الى حنجرتك ، وتصطدم بسطح لهاتك . . . لكنك تتأكّد أخيرا أنّك داخل حجرتك الضيقة القذرة ، وأنّ الباب والنوافذ كلها مغلقة . . . تبذل مجهودا جبارا كي تتخلص من كل ما تذكرت ، تنظر الى الشاشة أمامك . . . الشاشة صغيرة ، بالأبيض والأسود ، لا بل هي حمراء . . . حمراء بلون الكرز الفاقع الحمرة . أو قل هي بقعة من دماء . . تملأ العيون . . كلّ العيون ، الكبيرة والصغيرة ، المستطيلة والمدورة . . . الضيقة والواسعة . . . اليائسة والحالمة . . الباكية والضاحكة ، تفرك عينيك جيدا ، تتذكر . . تنظر من جديد ، الزحام شديد بما فيه الكفاية ، وعيون الأطفال مكتظة باللون الأسود . . الأحمر . . الفاقع الحمرة . ورغم أنّ الأرسال كان رديئا . . . والطقس أمسى في غاية الرداءة ، فان المشهد كان واضحا أمام عينيك ، بكل ألوانه وأبعاده ، اقشعرت لبدة رأسك ، انتابتك الرعدة ، ما زال الثور - نفس الثور الذي قتل (منوليتي) - يحتلّ (الكوريدا) ،

يسيطر على الساحة طولا وعرضا . . أرضا وفضاء . . .
لكّنه هذه المرة ـ بدا لك متثاقلا . . لاهثا ، لا يقوى على الحركة . . .

كان ظهره . . كتفه . . صدره . . . كل عضو فيه ، مزروعا برماح حادة ، قصيرة الكعوب ، مريشة الأجنحة وكانت الشرائط الملونة الزاهية ، تهتزّ فوق كتفي الثور وظهره ، كلما حاول التحرك ذات اليمين أو ذات اليسار ، كان مجهدا ، منهكا ، ما في ذلك شك . . . لاهثا ومتداعيا ، بل كان على حافة الانهيار . . . . التلاشى . . . .

ابتسمت داخل أعماقك المظلمة الباردة ، تناولت من جديد وللمرة الثانية ، وربما للمرة الثالثة مجلتك الباهتة المهترئة ، قلبت صفحاتها كمن يبحث عن شيء ذي بال ، استقرت عيناك على صفحة بعينها ، كان عنوان الموضوع : [حوارية للأطفال] . . . انهمكت في القراءة بصوت كالتمتمة . . . كنت لا تجروء على رفع صوتك ، ولكنك رغم ذلك ، كنت تشعر بشيء ما . . . كان قد ران على صدرك شعور مبهم تماما ، قد يكون هدوءا ، وقد يكون

طمأنينة أو ترقبا . . . وقـد يكون مـزيجا من هـذه الأشياء كلها . . .

مارس / 1974



مصطلحات

إشارات :

- الكوريدا : (Corrida). عملية مصارعة الثيران وهي من أشهر وأمتع أنواع الريّاضات المحبّبة الى الشّعب الاسباني منذ أقدم الأزمنة . . .

- الكابا : (Capa)، الوشاح الأحمر الذي يحمله المصارع عادة ـ داخل ميدان الكوريدا ليهيج به الثور أثناء اللعبة المسليّة القاتلة . . .

- منوليتي سانتشي : مصارع أسباني شهير ولد في قرطبة سنة 1917، صرعه ثور ضخم في احدى جولات الكوريدا سنة 1947 بمدينة (ليناريس) بأسبانيا . . .

- قلقميش ، وأنكيدو : بطلا ملحمة شعرية سومرية قديمة إكتشفت مكتوبة على ألواح الطّين الأثرية ، ترجمها الى

اللغة العربية كثيرٌ من الكتّاب والشعراء أشهـرهم (طه باقر)، وآخـرهم ـ حسب علمي ـ الشـاعـر العـراقي (عبـد الحق فـاضـل)، تحت عنـوان : (هــو الـذي رأى . . .)

* الكاتب في سطور *

* منيب محمد البوريمي

* من مواليد 1945/3/10
بأولاد ستّوت (زايو) عمالة اقليم الناظور

* اجازة في الأدب العربي (1980) .
من جامعة محمد بن عبد الله ـ فاس ـ

* يكتب الشعر والقصة القصيرة منذ سنة 1972 .

* نشر انتاجه في أهمّ الصحف الوطنية (العلم الثقافي/ المحرّر الثقافي/ الاتحاد الوطني/ البيان/ الاختيار/ آفاق . . .) .

صدر له :

* مليلية في القلب (شعر) 1978 .
المطبعة الثقافية ـ جدة ـ
* الأسوار . . والكوريدا (قصص قصيرة) .

* الفضاء الروائي في الغربة [الإطار والدلالة] عن دار النشر المغربية 1984 ـ د. البيضاء .

له قيد الطبع :

* الشعر المغربي المعاصر في الإقليم الشرقي (بحث)
* الرجل الذي قتله المصعد (قصص قصيرة) .
* البكاء بين يدي عبد الرحمن المجدوب (شعر) .
* قصائد بدائية (شعر) بابلو نيرودا (ترجمة) .

محمد يوسف العزوني

فهرس

هل فكروا لحظة واحدة فى السوط الذى ظل يلهب ظهورهم .. أكتافهم .. دماءهم سنة بعد سنة .. وهل مرت فى أذهانهم قوافل البؤساء ، من الرجال وأصناف الرجال وهى تنقل الحجارة الصماء من المقلع .. أوليست سواعدهم ، عضلاتهم .. قواهم .. هى التى استنزفت فى كل هذا .. أوليس العمل الدائب الصموت من أجل الحصول على لقمة العيش المغموسة فى العرق والدم والتراب ، هو الذى أقام هذه الأسوار العالية الجهمة ..



الثمن

700 درهم داخل الجماهيرية